عاليها واطيها

سعيـــــد ســـالم

روايـــــــة

بنى وطنى

سيأتى يوم تتصارعون فيه على الطعام، وقد يفكر بعضكم حينئذ فى أكل البعض الآخر .

لا تأخذوا تحذيرى مأخذ الهزل، وأحذروا ممن يتاجرون بفطرتكم .

رعمسيس سالم

- 1 -

تحت رمال خلدها السكون الأبدى، ترامت صيحات فزع متناثرة أطارت النوم من رفات عيون الزمن . امتزجت أصوات رعمسيس الثانى باخناتون وأمنمحات وحتشبسوت . تراصت ذرات الرمال المخلدة بقوة سحرية خارقة . تخلفت منها موجة مكهربة بطاقات القرن الحادى والعشرين الشمسية والنووية والبترولية . تجسدت الموجه أمام أشباح خوفو وخفرع ومنقرع، حين تثاءب أبو الهول متسائلاً عن سر الحركة التى دبت فجأة فى عالم الموت الأبدى . صدر من الموجه صوت عميق زلزَل أركان المعابد الشامخة .

ـ أيها الفراعين .. لقد أنقلبت أهراماتكم .

دبت الحياة تحت الأرض فزمجرت وأرعدت . كيف يحدث هذا الذى حدث ؟ .. رؤوس الاهرامات فى الارض وقواعدها فى السماء !

ـ من الذى قلبها ؟

ـ وأين كان أحفادنا وكيف سمحوا بذلك ؟

ـ لا مفر من عودتنا إلى الحياة لنعيدها سيرتها الأولى .

ـ فلنعقد اجتماعاً ترابياً عاجلاً نتدبر فيه أمورنا ونتخذ قراراتنا.

ـ ولنظل فى سباق مع الزمن حتى ننتهى من هذه المهمة المقدسة .

*** * ***

من تحت تراكمات الزمن السحيق خرج الفراعنة إلى مواقعهم حسب الخطة الموضوعة، يحمل كل منهم على كاهله أثقال التاريخ وحكمة الحياة وعبر الزمان الغابر . سطعت شمس مصر فى ذلك اليوم كما لم تسطع منذ آلاف السنين، وسبحت ربات الحب والامل فى مياه النيل صوب القاهرة قلب مصر ... حيث نام التاريخ .

*** * ***

حط أخناتون فى صحراء سيناء بمجمع الأديان الثلاثة . تساءل عن الحكمة من تعدد الديانات تحت ظل الإله الأحد . التهمته نفحة روحية فأستحضر أمامه الوعاظ الثلاثة . سألهم برقة الشاعر وثورة الشاب وهدوء الفيلسوف عن سر انقلاب الاهرامات.

أجاب الثلاثة فى صوت واحد متوحد :

ـ لسنا نعرف .

نظر اليهم أخناتون بعينيه النفاذتين . كيف يملكون أسرار الغيب فى جعبتهم المقدسة . ولا يعرفون سر الأنقلاب ؟ . نظروا اليه . ما هذا المخلوق الذى انبعث كصفارة انذار تثير الرعب فى سكونهم المستميت ؟ . نظروا إلى أنفسهم فحارت التساؤلات فى متاهة غارقة فى المجهول . ساد صمت طويل قطعه صوت محرك يدور على مسافة بعيدة .

قال أخناتون مخاطباً أجسادهم الهزيلة :

ـ ألا تجدون طعاماً تأكلونه ؟

تبادل الوعاظ الثلاثة فيما بينهم نظرات ساذجة ثم أومأوا مؤيدين لقوله. سأل نفسه كيف لم يفكروا في زراعة هذه الأرض منذ آلاف السنين . أجاب الثلاثة ـ بصوت واحد متوحد ـ كما لو كانوا قد استمتعوا إلى سؤاله :

ـ هذا ليس من اختصاصنا .

جثم الفتور على حماسه للقائهم . سألهم رغم ثقته بلا جدوى سؤاله :

ـ ألم تشهدوا تنفيذ العملية الاجرامية بالجيزة ؟

تبادل ثلاثتهم النظرات الساذجة مرة أخرى وان امتزج بها شئ من الخوف، ثم أجابوا فى صوت واحد متوحد :

ـ لقد كنا نائمين.

شك أخناتون فى وجودهم على قيد الحياة فسألهم بدهشة :

ـ هل تنامون معاً فى نفس الزمان والمكان ؟

ـ لقد قررنا النوم بأية وسيلة ممكنة، فى أى زمان ومكان .

ـ ألا تخافون إلهكم ؟

ـ بل نعيش على خوفه .

ـ فلماذا لم تخيفوا الناس بقوته وانتقامه حتى لا يرتكبوا أفعالا اجرامية مثلما حدث ؟

ـ الناس أصبحوا لا يخافون ... لقد صرنا نحن نخاف منهم .

رأى أن يحسم الحديث معهم قبل أن يدهمه اليأس، فسألهم :

ـ هل تتعاونون معى على التفكير فى وسيلة لاستعدال الأهرامات ؟

أجابوا بالموت نفسه :

ـ نتعاون، ولكن بعد استئذان أولى الأمر .

تملكته رغبة مخلصة ـ رغم رقة مشاعره ـ فى حيازة مدفع رشاش يطلق نيرانه على قلوبهم، لكنه تخلى عن هذه الرغبة حين أدرك أن هذه القلوب ليست بحاجة إلى الموت .

قال بأسى :

ـ لا وقت لمثل هذه الاجراءات التى قد تطول . فلنسم بأرواحنا ونفعل شيئاً طيباً .

تبادل الوعاظ الثلاثة نظرات قلقة موحية بالفزع .

فجأة أطلقوا سيقانهم للريح واختفى كل منهم داخل موقع عبادته. هبت نسمة هواء رطبة على الموقع الهادئ فنكس أخناتون رأسه . جثا على الأرض موجهاً بصره إلى الشمس مردداً عبارته الشهيرة " أيها الإله الأوحد .. إنك تضع كل إنسان في موضعه " .

ثم انسحب الى أغوار الصحراء يجرجر قدميه متخاذلاً، حتى استحال إلى شبح غير مرئى .

- 2 -

اجتمع الوعاظ الثلاثة لمناقشة الخطر الذى أصبح يهدد مصيرهم بعد انتشار مذهب "الجوهرية " الذى تروج له فيلسوفة فرنسية معاصرة . طالبت الفيلسوفة بإلغاء الطقوس الدينية الثلاثة استناداً إلى وحدة الجوهر فى جميع الأديان، وتحاشياً للصراعات المذهبية بين بنى الانسان، وحرصاً على أن يجمع الحب شمل البشر على كل بقاع الأرض .

قال الوعاظ إن الجسد هو الكيان الخارجى الحامل للروح الانسانية وأن الشكل هو الكيان الخارجى الحامل لمضمون الأشياء ... ولما كان الأمر كذلك فإنه لابد أن تكون الطقوس هى الرمز المعبر والوعاء الحاوى والشكل المشتمل لكافة الأديان المنزلة، ولتسقط الفيلسوفة الكافرة، واللعنة على مذهبه الفوضوى العقيم .

أما اخناتون فلم يرد ذكر أسمه على لسان واحد منهم مرة واحدة .

- 3 -

انتصب رعمسيس الثانى واقفاً فى شموخ على أرض سيناء . أندفعت الرمال فى موجات حركية متعاقبة كالدوامات البحرية . صدرت عن تموجاتها أصوات خاشعة، مالبثت أن هدأت واستكانت فى أرض الموت تحت ظل العملاق الفرعونى المبعوث . تذكر موسى وهارون فانتابته رجفة الخوف من المجهول .. تصاعدت حدة يقظته حين رأى جندياً أمريكياً من جنود قوات الطوارئ الدولية مارا أمامه، يحمل على كتفه مدفعاً رشاشاً لم ير مثله قبل .

ـ قل لى يا .. لماذا تحمل سلاحاً ؟

ـ لأحقق السلام بين المصرين والعبرانيين .

ضحك رعمسيس ضحكة راعدة أفزعت الجندى الرقيق، ثم تساءل ساخراً :

ـ شئ ظريف حقا .. السلام بالمدفع ؟

تفكر الجندى قليلاً ثم قال بالهجة استنكارية واثقة :

ـ أيها الفرعون العظيم ... انها وسيلة العصر فلا تسخر منها .

ـ هل استنفدتم بدائل الدين والفكر والفن تماماً ؟

أجاب الأمريكى بحياء وعلى فمه ابتسامة العارف :

ـ ما دمت تتحدث عن هذه البدائل الانسانية يا سيدى، أما كان من الأجدر بك أن تنصح نفسك وقومك، أم أنك تريدنى أن أذكرك بما فعلتموه مع موسى وهارون ؟

صمت رعمسيس فى كبرياء .لم يكن أمامه الا أن يغير مجرى الحديث . سأله بلهجة قاطعة غير مبررة :

ـ ما رأيك فى انقلاب الاهرامات ؟

ـ ربما كانت أحدى معجزاتكم الخارقة الجديدة .

ـ بل انها لكارثة تتحدى أصالتنا .

بأدب شديد قال الجندن واثقا من كل كلمة تخرج من فمه :

ـ لقد تحولت أصالتك التى تتحدث عنها إلى قطع استاتيكية ميتة من آلطوب، وعصرنا أيها الفرعون عصر الديناميكية والحرية والتغير الدائم الذى لا يتوقف أبداً .

ـ يبدو أنك سليل قوم شديدى الغرور .

ـ معذرة يا سيدى الفرعون . أن أحفادك أهانوا زمانهم بالخوض فى حروب بلا هدف، استنزفت أصالتك، ولهذا السبب أحتجت عليهم أهراماتك.

ـ أتقصد أنها انقلبت من تلقاء نفسها ؟

ـ سوف ترى بعينيك وتسمع بأذنيك وتصل إلى الحقيقة .

خاطبه رعمسيس بلهجة خشنة آمرة لا تليق بسائل :

ـ أتقدم لى عوناً من حضارتك لجيشى ؟

تجاهل الجندى عنجهية الفرعون وسأله بهدوء :

ـ أى عون وأى جيش ؟؟

ـ سأستحضر جيشا بأكمله كى نستعدل الاهرامات، وسوف أكون بحاجة إلى سلاح حديث كالذى تحمله على كتفك .

ـ وما الداعى لاستخدام السلاح في مثل هذه العملية السلمية ؟

ـ لست أبتغى العدوان على أحد، لكنى أتوقع مقاومة من جهات عديدة لعملية الاستعدال .

ـ دعنى أفكر فى هذه المسألة وسوف أعود اليك فيما بعد .

أدار الامريكى جهاز ترانزستور صغير فى جيبه وانصرف تصحبه موسيقا صاخبة أثارت تقزز الفرعون المصرى، أخذ رعمسيس يتأمله فى ذهول وقد بانت على ملامح وجهه المتحيرة علامات الاستغراب لسماع هذه الموسيقا التى لم تألفها أذناه من قبل . أشعل سيجاراً وراح يسترجع الحوار الذى دار بينهما . كان أبرز ما بقى بخياله من لحظات اللقاء، تلك الحركة المنتظمة بين فكى الامريكى، إذ كان يمضغ لبانا فى فمه .

فجأة ثارت زوبعة رملية من حوله أسفرت عن وقوف أخناتون أمامه وقد بدا عليه حزن شديد . سأله رعمسيس .

ـ ماذا فعلت ؟

قال أخناتون يمزج من السخرية والأسى :

ـ هرب منى أصحاب المجمع بجبن لا مثيل له .

ـ كنت واثقا أن هذا سيحدث .

قال أخناتون والحسرة تعتصر فؤاده :

ـ لم تعد لهم فائدة فى هذا العصر، فقد استبدل بهم رجال يسعون إلى الحكم باسم الدين.

ـ رحم الله أيام كهاننا العظماء .

ـ إنى أفكر فى اللجوء إلى أهل الفن والفكر .

أما رعمسيس فقال بثقة شديدة :

ـ وأنا أعتقد أن أستدعاء جيشى هو الحل الوحيد .

ثم افترقا على موعد بلقاء جديد .

– 4 –

ظللت سحابة رائقة أرض سيناء، وقذف البحر بأمواجه العابثة على الشاطئ الرملى العجوز فى هدوء ينفث سحراً، وحين توارت الشمس فى حياء وراء البحر سكنت الموجات وعزف الكون أنغام الصفاء الأبدية .

تسللت بين جدران الصمت المسحور جنيات البحر الجميلات .. راقدات على الشاطئ . تنطلق ضحكاتهن فى عذوبة ونقاء شادية معزوفة الكون الحالمة . قالت نخلة لجنية :

ـ إنى أرثى لحال الأحفاد

قالت الجنية :

ـ من ماء النيل ستدركين سر الاسرار

ثم اصطفت الجنيات يؤدين الصلاة، حين قالت كبيرتهن :

ـ لندع الله أن يوفقنا فى خدمة الفراعنة المبعوثين ولنمنحهم كل ما نملك من قوة السحر العظيم وصلابة الوجود الحى المتجدد .

– 5 –

تنكر أخناتون فى زى معاصر واتجه الى حاره " بندقة " بالاسكندرية . جلس إلى مقهى بالحى الشعبى وطلب كوباً من القهوة . ركز سمعه على الراديو . صوت مغنية تصرخ باكية فى ذلة . أخرج أخناتون قاموساً عصرياً وراح يتابع معانى الكلمات التى يسمعها . تقياً ما بجوفه وانصرف .

قال له أهل الحارة أنهم فخورون بإنجابهم " سمارة " مطربة العصر. دعوه لحفل تحييه و أعطوه عنوان المسرح . فى المساء لم يسمح له سائق التاكسى بالركوب إلا بعد مساومة مالية مجحفة . فى التاكسى أدار السائق شريط " الكاسيت " وأخذ يهتز طرباً لصوت المطرب الشهير . نظر اليه أخناتون بدهشة بالغة . أخرج قاموسه فاكتشف أن اللغة مخالفة . لم يفهم شيئاً . تعجب لفظاظة مخارج الحروف من حنجرته وفمه . سأل السائق ببراءة:

ـ أهو مطرب مصرى ؟

ـ أتسخر منى يا أستاذ ؟ .. ألا تعرف " محمد ملوخية " ؟

ـ أقسم أننى لا أعرفه . انى غريب عن هذه البلاد وعن هذا العصر .

قال السائق ببلادة :

ـ انه يتقاضى آلاف الجنيهات فى الليلة الليلة الواحدة .

التزم اخناتون الصمت حتى وصلت العربة إلى المسرح . ساعة كاملة "تسرسع " سمارة بحنجرتها وتهز بطنها بسرعة شديدة . يصرخ المعجبون بوحشية غريبة من شدة الانتشاء . جمعت منهم مئات الجنيهات ألقيت فوق صدرها . خيل إلى أخناتون أنه سيموت مرة ثانية لو انتظر حتى نهاية الحفل وهذا ما لا يجوز فى عالم الاموات أو الأحياء، فالموت لا ياتى أبدا مرتين . أصر بجنون على الحصول على عنوان مطرب الكاسيت الشهير، ونجح فى مسعاه. سافر إلى القاهرة وتمكن من تحديد موعد لمقابلته .

****

ـ أريد الاستنارة برأى سيادتكم حول أسباب أنقلاب الاهرامات .

تمطى محمد وتثاءب . خطوط الوجه غير فرعونية.

قال بثقة شديدة :

ـ الحكاية بالصّلاة على النبى، ولا مؤخذاة، لا تهمنى فى شئ طالما الأشياء " معدن " (*) والحمد الله .

فقد أخناتون أحساسه بموقعه من الزمن . داهمه الاغتراب الشديد بين عصور مضت وعصر كل ما به يثير الذهول .

ـ أنا لم أفهم شيئاً !

ـ وقتى ضيق يا أستاذ .. تشرب " شيشة " ؟

إمتزجت عصور ما قبل التاريخ وأنسحبت إلى الأزمنة الغابة المجهولة التى سلفتها، فبرزت مسألة الخلق والوجود، وراح أخناتون فى شرود عميق ثم سأله بيأس بالغ :

ـ بأى لغة تغنى يا أستاذ ؟

ـ أسم الله عليك . أنا أغنى بلغة المعلمين والجدعان " العترة " بالصلاة على النبى .

ها هى مهزلة الأصالة والجذور الحضارية الراسخة والآلاف السبعة تثمر في النهاية عن لا شئ . هز رأسه فى حسرة .

ـ هل قرأت شيئا عن حضارتك القديمة ؟

ـ أنا ولا مؤاخذة كنت أسكن فى " الحضرة "(*) . آه . ولكنى لم أتعلم القراءة والكتابة .. ماذا أفعل بهما و رزق ربنا من غير حساب ؟ ..ثم مالنا نحن بالأهرامات سواء أنقلبت أوحتى طارت من مكانها ؟

تذكر أن اليأس أحدى الراحتين فقال متأسياً :

(*) مصطلح شعبى دارج للدلالة على يسر الحال .

(*) إسم حى شعبى سكندرى .

ـ شكراً .. شكراً أيها الفنان المصرى العظيم .

ـ مع السلامة بالصلاة على النبى وقلبى معاك .

أستعاد اخناتون قول سمارة فى أغنيتها " أول كلامى كلام وكل كلام له أول .. وكل شئ فى الوجود موجود وله أول " ثم نظر الى شفتى " ملوخية " وهما تتحركان بكلماته " ولا مؤاخذه بالصلاة على النبى "، فقال انه لن يستسلم .

-6-

أيتها الأرض القديسة يا من شهدت أول ابداعات الخلق .. منذ عصر الحجر وقبل مولد أجدادى تدفقت فى شرايينك دماء الفن المقدس . أكاد لا أصدق عينى . ها هو ترابك قد ترطب بسائل أحمر أغلب ظنى أنه دم سال بغير حساب . خضرتك المتألقة أراها باهته تسلب البهجة من روحى . أراهم يمشون على ترابك فى غيبوبة يا حبيبتى . أمنحينى دفئك أحيلك جنة نضرة تتغنى بالمجد . يا أبنة التاريخ أنا أبنك الذى جاء يبعث فيك الحياة، يكسو العظام لحما . يعيد الأهرامات إلى وضعها الحقيقى . يبث الروح فى الجسد الخاوى المستكين ويمنحه الحب والقوة فالبكاء لن يجدى أبداً

أتجه أخناتون إلى الصحيفة اليومية الكبرى لمقابلة الكاتب والمفكر الكبير " حليم حتحوت " . أنبهر بعظمة المبنى ونظافته . تنفس بارتياح وقد عاوده الأمل باحتمال العثور على بغيته . أستقبله حتحوت بأنحناءة كبيرة تتم عن احترام عظيم، ثم قبل يده بمحبة صادقة وقال له بصوت خفيض كمن يفشى سرا .

ـ ما الذى جاء بك إلى هنا وفى هذا الزمان بالذات ؟

تأمل أخناتون أفاعيل الزمن على وجه حليم حتحوت حيث يقبع وعى مكثف بثنائية الحياة والموت . أجابه قائلا :

ـ الكارثة !

ـ تقصد أنقلاب الأهرامات ؟

ـ وهل هناك كارثة أسوأ منها ؟

قال حليم بلهجة تفيض بالأخلاص :

ـ أنى أنصحك بالعودة الى تابوتك، وبأن تنزل به الى عمق أبعد من عمقه القديم فى باطن الأرض .

ـ لم هذا التخاذل ؟

ـ لأنى أحبك، وأخشى عليك من مغبة الفشل، فأنا وزملائى ـ من المفكرين والعلماء ـ لن نستطيع أن نقدم لك أى عون، وبصفة خاصة " العون المادى "

ـ لماذا ؟

ـ أنا شخصياً لست أملك ثمن " خلو رجل " شقة خالية تتزوج فيها أبنتى الأولى .

ـ لكنى لست أطلب عونا ماديا . فقط أسألك العون الفكرى لمعرفة المسببات والنتائج .

ـ معذرة أيها الفرعون الشاعر، فلقد أصبح ذهنى مشوشا وأخشى أن أمدك برؤية قاصرة .

ـ لا تبخل علىّ بوجهة نظرك فإنى مشتاق إلى معرفتها .

ـ قد تزعجك كثيرا .

ـ لا بأس، قل ما تعتقد فيه .

ران بينهما صمت طويل . كانت نظرات أخناتون تستحث حليم حتحوت أن يتكلم . فى النهاية قال حليم كمن يقرر حقيقة راسخة .

ـ أن الأهرامات لم تنقلب !

أنفجر أخناتون ضاحكا . بدت على وجهه علامات الأشفاق على الكاتب الكبير الذى واصل حديثة قائلاً :

ـ لا تعتقد أننى جننت ، فأنا لم أصل بعد إلى هذه الحالة .

ـ لكنى رأيتها بعينى مقلوبة، ولا شك أنك أيضا رأيتها كذلك .

ـ هذا صحيح .

ـ إذن فكيف تقول إنها غير مقلوبة ؟

ـ لأن وضعها الحالى هو الوضع الطبيعى .

ـ ماذا تقصد بالوضع الطبيعى ؟

ـ هو الوضع الذى يرضى سمارة وملوخية ورجال مجمع الأديان الذين هربوا منك .

لم يكن أخناتون يعلم أنه أمام داهية حين سأله بخبث شديد :

ـ ويرضى من أيضا ؟

فأجابه حليم بخبث أشد :

ـ لن أدلك حتى تكتشف بنفسك

لم يعدم أخناتون الأمل :

ـ فمن هم غير الراضين ؟

أجاب حليم ببطء شديد :

ـ كل من يُعملون عقولهم، وكل من ارتقى وجدانهم .

شعر أخناتون بسعادة مباغته . لقد اهتدى الى ضالته أخيراً . صاح بحماس :

ـ أنت المخلوق الوحيد الذى سيقدم لى العون .

ـ كيف؟

ـ تدلنى بربك على أسماء وعناوين هؤلاء القوم .

ـ أى قوم ؟

ـ الذين يُعملون عقولهم والذين أرتقى وجدانهم.

أنفجر حليم حتحتوت ضاحكا بقوة أقرب إلى الغضب، قفز واقفا على مكتبه وصاح بحسرة :

ـ أننى أبحث عنهم في هذا الوطن منذ سبعين عاما

ـ ألم تجدهم بين قرائك ؟

أطلق ضحكة ساخرة وتساءل :

ـ قرائى ؟ .. هه ! لقد أخذ السوس ينخر فيهم فتحولوا إلى كائنات هلامية ممسوخة، وقد تشعبت الأسباب وتشابكت حتى أستحال فهمها وتحليلها .

ـ أنك تحيرنى بتفسيراتك .

ـ ألم أحذرك من البداية ؟

صمت أخناتون طويلا . فكر بعمق في كل ما قاله حليم حتحوت سأله بأهتمام :

ـ أما زلت مصرا على أن الأهرامات المقلوبة غير مقلوبة ؟

تجسدت معالم الدهاء على وجه حليم حتحوت .

ـ لكى أكون أكثر وضوحاً، فإنها مقلوبة وغير مقلوبة فى آن واحد .

تملكت الحيرة أخناتون فقال :

ـ دعنا نحدد الأشياء بمسمياتها الحقيقية

ـ هذا ما أفعله بحكم خضوعى للمنطق

ـ لكنى أرى عاليها أسفلها .

ـ أما أنا فأرى أسفلها عاليها .

قال أخناتون مخفيا نفاذ صبره :

ـ أذن فنحن متفقان على كونها مقلوبة .

قفز حليم من مكتبة بعصبية واضحة .. جلس القرفصاء على الأرض يعيداً عن المقاعد مشيرا بسبابته إلى أخناتون .

ـ لا تجعلنى أشك فى عبقريتك . التزم بنصيحتى وعد إلى تابوتك فلا جدوى من هذه المناقشة .

ـ عيبك الوحيد هو السلبية الشديدة .

ـ بل عشقى لمعرفة الحقيقة .

أبتسم أخناتون أبتسامة زمنية ذهل حليم لشدة عمقها وصفائها أحدثت هزة أرضية طفيفة بالمبنى . تساءل بعينه عن الحقيقة التى يعنيها حليم دون أن يتكلم، فأجابه حليم بلهجة خطابية ذات رنين عصرى :

ـ ستبقى الأهرامات على ما صارت إليه لزمن طويل

ـ حتى متى ؟

ـ حتى تتغير أشياء كثيرة .

ـ وصلنا إلى النهاية .. ما هذه الأشياء فى رأيك ؟

قال حليم بوجه منفصم :

ـ انى أشعر بجوع شديد .

كلما أمعن حليم فى إستخدام دهائه، أزداد أخناتون أعجابا بعبقريته .

ـ أتسمح لى بدعوتك لتناول الغداء معى ؟

ـ هذا واجب على من جهة، وشرف عظيم لا أستحقه من جهة أخرى .

ـ أرجوك .

ـ كان بودى، لكن معدتى أصبحت ترفض الطعام بعد أن تلفت أعصابها من دوام التوتر اليومى .

ـ أتعدنى بلقاء ثان ؟

ـ هذا شرف عظيم لى يا مولاى .

*** * * ***

عندما غادر أخناتون مقر الجريدة الكبرى تذكر ما رواه سائق التاكسى عن " ملوخية " حين دعى لاحياء حفل زواج بسوسرة بين قط وقطة سيامين يمتلكهما أحد الامراء البترولليين العرب حيث نقده أجره بالاسترلينى . حينئذ تأكد أخناتون من أن النتيجة الطبيعية لتعاقب

الحضارات الفارسية والفرعونية واليونانية والرومانية والعربية على الارض التى حكمها يوما هى ان يقول حليم حتحوت ما قاله بعد لقائه بالفنان المصرى الشهير .. تبادرت إلى ذهنه خاطرة تقول بأن الفكر والدين والفن، إذا لم يقودوا أحفاده إلى حل لمأساتهم المعاصرة، فإنه لا أمل فيهم إلى يوم يبعثون .

– 7 –

من رعود رعمسيس وأشعار أخناتون . من صفاء الشمس المشرقة وليل القمر الحزين ونجوم السهر المتلألئة . من صلوات كهنة آمون وآتون . من رهبة الاله الأعظم أوزوريس مدبر الأحياء والأموات . من تحت جناح الزمن الطائر فى أفق الكون .. من هذه العصارة القدسية الخالصة يأتى الفن، ولا يأتى من طريق أخر . ولكن ..

" ما بلاش اللون ده معانا .. راح تتعب قوى ويانا "

هذا ما سمعته أذناك فوق التراب الأحمر . حسن .. من قبل لم تصدق عينيك، فالآن لا تصدق أذنيك .

* * * *

أجرى رعمسيس الثانى اتصالاته بالعالم السفلى فاصدر أمراً باستدعاء جيشه كاملا إلى صحراء سيناء . لا مناص من اللجوء إلى القوة وقد ثبت أنها مفتاح سحرى لكل الاسرار عبر كل الأزمنة، لنصر الخير أو الشر على السواء ، ثم أصدر أمراً آخر بأن يظل الجيش أمامه فى صورة غير مرئية لسواه حتى لا يتسبب فى أفساد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل . لكن هذا الامر لم يكن ليغير من صلابة عقيدته بأن فكرة وجود الكائنات منفصلة تماما عن قدرة العين البشرية على رؤيتها . فهناك كائنات مرئية لكنها غير ذات وجود .

فى لمح البصر اتخذت الجيوش مواقعها وأعطى له " هامان " التمام باكتمال القوات، لكنه عبر عن قلقه الشديد لاستدعاء الجند بلا سلاح . طمأنه رعمسيس الى سلامة القرار وطلب منه أن يعدهم نفسيا لتدريب مرهق على الأسلحة الحديثة التى سيتلقاها من الأمريكان .

سأله هامان بدهشة :

ـ ما معنى الأمريكان ؟

ـ أنهم قوم أغنياء يعيشون على أرض يقال لها " أمريكا " كان يعيش عليها الهنود الحمر قبل إبادتهم .

ـ لكننا لم نسمع عنهم حينما كنا أحياء !

فكم من أقوام وأجناس تعاقبت منذ بدء الخليقة على بقاع هذا الكوكب الغريب، وحتما ستظل دورة التعاقب أبدية إلى حيث لا نهاية للزمن المجهول ... ثم قال :

ـ علينا أن نقبل الواقع المعاصر قبل أن نتعامل معه .

أقتنع هامان بوجهة نظر رعمسيس، لكن حيرة جديدة بدأت تنتابه، فقد كان يعمل وزيراً للحرب عند الفرعون " منفتاح " ـ ابن عم رعمسيس ـ فلماذا استدعاه رعمسيس ولم يستدع معه ولده منفتاح ؟

ـ لقد مات ولدى كافرا بالله حين أنشق البحر بعصا موسى فابتلعه وجنوده .

تردد هامان قليلا قبل ان يقول له بمكر مستتر .

ـ لقد كنت مثله يا مولاى .

رغم انه لم يكن يؤمن بالاله الواحد، لكن فكرة الكفر عنده لم تكن باعثه الأوحد لروح التحدى أو لاتصافه بالكبر والجبروت . لقد تضاءلت المسألة برمتها أمام روعة المجد العسكرى وعنفوان شهوة الانتصار . قال له رعمسيس بجرأة فائقة :

ـ لكنى أعتقد أننى آمنت بعد ذلك .

أبتلع هامان المقولة ـ رغم تشككه ـ حين ظهر الجندى الأمريكى على مقربة منهما . اللبان فى فمه . الرشاش على كتفه . الموسيقا الصاخبة تنبعث من صدره . رحب به رعمسيس وقدم له هامان ثم سأله :

ـ هل تباحثت مع قومك بشأن الأسلحة الحديثة ؟

ـ لقد اتفقنا على تأجيل إمدادك بالسلاح لحين أن تجرى محاولة سلمية بجيشك لاستعدال الأهرامات .

تفكر رعمسيس برؤية ثم قال بغضب رسمه بعناية على وجهه :

ـ إنى أرفض شروطكم . معى المال ومعكم السلاح، فإما الموافقة وإما الرفض . أما إملاء الشروط فهذا ما أحتج عليه بكل شدة .

علق الأمريكى ببرود

ـ لا مبرر للإنفعال يا سيدى، فنحن أدرى بكم منكم .

تعجب رعمسيس من صفاقة ماضغ البان فسأله بغضب :

ـ كيف ؟

ـ بالسخرة فقط بنى أبناؤكم الأهرام وحفر أحفادكم قناة السويس،وبها أيضا ينبغى أن تستعدل الأهرامات .

ـ هذا أفتراء . لقد بنوا الاهرام تقديساً للحاكم ومحبة له وعبادة .

ـ بل بالسخرة .. نفس السخرة التى اتبعتموها مع اليهود فيما بعد

ـ لا تخرج عن موضوع الحديث من فضلك .

ـ لقد قلت ما عندى .. لا أسلحة قبل معرفة نتيجة المحاولة السلمية .

بعد أنصراف الأمريكى لم يجد رعمسيس بديلا لما عرضه عليه . أضطر ـ على مضض ـ أن يبعث بجيشه إلى الجزيرة بلا تدريب على السلاح المنتظر .

أنتقل إلى هناك ليرقب محاولة الاستعدال بنفسه . اجتمع المهندسون الفراعنة حول الاهرام ووضعوا تصيمهم الفنى لكيفية استعدالها دون سقوطها . قرروا البدء بالهرم الاكبر . تكاثف لجنود حول الزوايا التى حددت هم وبدأوا العمل ... وفى ظل مظاهرة كونية صاخبة أجتمع فيها الشمس والقمر والنجوم وبعثت فيها بقية الكواكب الاخرى باشعاعات الحب والتبجيل، كان التاريخ واقفا .

فوجئ الجميع بظهور خوفو . إتجه بثبات إلى رعمسيس . قال له بوجه متجعد المعالم :

ـ لماذا لم تستعن بمهندسينا من الأحفاد ؟

ـ لقد هاجروا إلى الدول العربية .

ـ هل أتصلت بالحكام المعاصرين تستأذنهم فيما تفعل ؟

ـ ولماذا أستأذنهم وأنا أحاول أن أحقق لشعبهم ما عجزوا هم عن تحقيقة ؟

راح الجنود يرتلون الأهازيج الدينية بايقاع ثابت وهم يحاولون زحزحة الهرم من الارض تمهيدا لقلبه . بذلوا العرق والدم ولم يتزحزح الهرم سنيتمتراً واحدا . إنهال عليهم هامان بسوطه الحديدى الملتهب وهو يصرخ فيهم مهددا بالمزيد من العنف والقسوة .

بانت علامات التفكير المركز على وجه خوفو . خيل اليه أن هناك مقاومة مضادة لتحريك الهرم تأتى من الجهة الأخرى المقابلة للجنود . صرح لرعمسيس بما يدور بخلده . كلف رعمسيس هامان باصطحاب بعض الجنود للالتفاف حول الهرم من تلك الجهة . تهلل وجه خوفو بالفرحة لصدق نبوءته حين عاد الجنود ممسكين بعملاق من أحفادهم طوله طول الهرم . أصدر رعمسيس أمرا بالتوقف عن العمل بعد أن أوشكوا جميعا على الموت .

العملاق الاسير يقاوم بضراوة . يوقع بهم عن يمينه ويساره بضربات ساحقة من قبضته الفولاذية الضخمة . يصيح بصوت مفزع معترضا على أسره . متحديا رعمسيس :

ـ أنا قبطان مراد عثمان .. ألا تعرفوننى ؟

قال رعمسيس ساخراً :

ـ كيف لا أعرفك وقد جابت شهرتك الآفاق مؤخراً ؟!

ـ وما دمت تعرف هذا فبأى حق تقبض على ؟.

ـ لأسألك لماذا تقاوم أستعدال الهرم المقلوب .

ـ كأنك تسألنى لماذا أقاوم الموت ؟

لم يكن رعمسيس بحاجة إلى مهارة ذهنية تدعم ظنـه باستحالة استقلالية هذا البنيـان البشرى الاسطورى .

سأله بآلية :

ـ قلى لى أولا .. من وراءك ؟

ـ عشرات من العمالقة وربما مئات، وكلهم من ذوى الحيثية .

ها هى الحقيقية تعلن عن نفسها، بينما الأحفاد يتفرجون .

ـ لماذا قلبتم الأهرامات ؟

ـ نحن لم نقلبها .

ـ إذن فقد انقلبت بسببكم .

تساءل العملاق بصوت ينبئ عن الاستهانة الفائقة بالجريمة .

ـ فما هى مسئوليتنا عن ذلك ؟

ـ كان من الممكن أن تستغلوا عملقتكم للحيولة دون أنقلابها .

ـ فماذا كنتم من قبل أيها الانتهازى الخائن ؟

ـ كنا صراصير !

فليهنأ علماء التطور . ها هى حجة مملموسة يمكنهم أن يتذرعوا بها أمام رجال الدين

ـ وكيف حدث هذا التحول الصارخ، وبهذه السرعة ؟ !

أجاب قبطان بنغمة أختلفت كثيراً عن نغمته الحوارية السابقة :

ـ لا شئ بعيد عن قدرة الله .

مهمـا كـان الامـر فـلا بـد أن للإيمـان قداسـته .. أنـى أحتقـر هـذا الديناصـور البشـرى الكريه..

ـ لا مبرر لان تلعب أمامى دور الولى، فالشيطان متجسد فى وجهك .

ـ ومن أنت حتى تصدر على مثل هذه الاحكام ؟

بصوت قوى راعد قال رعمسيس مفجراً سخطة وغضبه :

ـ أنا الذى قرر أعدامك رميا بالدولارات .

ثم أصدر أمرا إلى العالم السفلى بأن يتحول الجنود إلى أجسام مرئية فوقع التحول على الفور . ذعر قبطان من كثرة عددهم . قال له رعمسيس :

ـ كل هؤلاء سيقذفونك بالدولارات حتى تموت شهوتك للحياة .

أطلق قبطان ضحكة أستفزازية واثقة وقال :

ـ لن تتمكنوا من قتلى فلا قبل لكم بقوة العماليق من خلفى .

فى تلك اللحظة ظهرت حتشبسوت مرتدية ملابس الرجال فوق خوفو ورعمسيس أحتراما لها وتبادلوا التحية . كانت رائعة الجمال تحوطها هيبة قدسية ويشع منها وقار وجلال . قالت لرعمسيس بصوت هامس :

ـ حضرت لألفت نظر جلالتك إلى أنك خرجت عن بنود الأتفاق التى قررناها فى الاجتماع .

ـ كيف ؟

ـ نحن لم نبعث كى نحاكم أحفادنا على أخطائهم وجرائمهم، وإنما لكى نعيد الأهرامات إلى وضعها الطبيعى .

ـ ولكن ماذا نفعل بمن يقاومنا ؟

ـ أنسيت القصر الكبير ؟

ـ معنى هذا أننا لن نقتل هذا الوغد المسمى بقبطان مراد عثمان .

ـ نعم، فهذا ليس من حقنا .

التزم خوفو الصمت وإن ظهرت عليه علامات التأييد لقول حتشبسوت . تفكر رعمسيس قليلا ثم قال لها بتافف :

ـ معك حق .

ثم أمر باخفاء الجنود مرة ثانية وبتسليم قبطان لحتشبسوت، التى أصطحبته فورا مع نفر من الجند واتجهت به إلى شرق الصحراء .

–10 –

فى الطريق سألها قبطان عن وجهتها فأخبرته بأسلوب مهذب أنها مطالبة من مجلس الفراعنة باستضافته مع المطربة سمارة والمطرب محمد ملوخية فى قصر كبير بالصحراء لحين أن يستكمل أخناتون ورعمسيس مهمتهما فى أستعدال الاهرامات . لم يتمالك قبطان نفسه فعبر عن فرحته بمشاركة سمارة مكان الضيافة، لكن حتشبسوت حذرته من أرتكاب أى عمل فاضح قد يسبب له شديد الضرر .

فى الطريق بذل القبطان ما وسعت حيلته محاولا أغراءها بملايين الدولارات كى تخلى سبيله، فلم تستجب له . بدأ يجرب معها وسيلة الضعف والمذلة فقال إنه أنفق على الشعب من ماله الكثير وإنه بنى لهم المدارس والمعاهد بملايين الجنيهات . قالت له بغضب مكتوم :

ـ لكنها أموال الشعب وليست أموالك .

أجابها قبطان ساخرا :

ـ إننى أفضل بكثير ممن يجمعون الأموال بمثل طريقتى ثم يخفونها في البنوك الاجنبية بأرقام سرية .

أخفت حتشبسوت شعورها نحوه بالاحتقار الشديد وراحت بذاكرتها إلى آلاف السنين حيث " أمرنى الاله آمونرع أن احكم الارض السوداء والحمراء مكافأة لي . ليس لى عدو .. الكل رعاياى .. حدودى إلى نهاية اننى أهبه له .. أنا ابنته التى تمجده "

واصل قبطان بلا كلل محاولاته لاقناع حتشبسوت باعفائه من الاستضافة دون جدوى . فى النهاية سئمت منه فتنازلت عن بعض كبريائها الذى سبق أن أملى عليها الصمت طوال حديثه وقالت بترفع :

ـ يا بني، لقد حكمت بلدك أكثر من عشرين عاما، أستعنت فيها بأكفا الخبرات من عظماء الرجال الذين كانوا يطيعوننى ويحترمون ذكائى، حتى ان عهدى كان بحق عهد رخاء وبناء لم تخض فيه بلادى حربا واحدة .. ثم تأتى أنت ايها الجهول لتحاول الاستخفاف بعقلى ؟ .. إنى أرجوك أن تصمت وكفاك إيذاء لمشاعرى والا أضطررت إلى تأديبك. هذا من حقى ومن صميم سلطتى التى فوضنى بها زملائى الفراعنة .

شعرت حتشبسوت بما انطوت عليه نفسه من نوايا عدوانية بعد سماعه لتهديداتها، فأظهرت من حوله بضع مئات من الجنود ثم أخفتهم فجأة، مما اثار رعبه وأقتلع نواياه من جذورها . حينئذ لم يجد قبطان بدأ من الرضوخ فقرر الصمت . تركته حتشبسوت فى أحد ابهاء القصر الكبير وأشارت له إلى الغرفة المخصصة لاقامته خلال فترة الاستضافة . غادرت القصر ساعة ثم عادت مصطحبة سمارة وملوخية . وضعت كلا منهما فى غرفته وأمرت الخدم أن يعدوا لهم ما يريدون من طعام وشراب، ثم أغلقت باب القصر وأنصرفت.

*** * * ***

توهجت رمال الصحراء الملتهبة بحرارة الذكريات فجاء الرجال وأنحنوا لتحتمس الأول حين قال لهم ":

- هذه هى ابنتى حتشبسوت .. أنها خلفى .. وهى التى ستعتلى عرشى الرائع .. ستأمر الناس فى كل مكان بالقصر .. أنها هى التى ستقودكم وستستمعون لها وستتحدثون تحت لوائها .. أن من يظهر لها الخنوع سيعيش، ومن ينطق بالسوء سخرية من جلالتها سوف يموت " .. ثم تحولت حتشبسوت بذكرياتها بعالمها السحيق بذاتها المرتفعة إلى كيان غير مرئى .

-11-

من مليكة القوة والفن والجمال إلى من يهمهم الأمر :

" يا قوم إنى بعثت من موتى وكنت نسيا منسيا وأنا التى لا ينبغى أن تنسى أبداً .. "

" يا قوم إنى جئت هنا فى بؤرة الكوكب المفتون حيث أهرامات أجدادى مهددة بالفناء "

" جئت أحمى أرضى من العابثين والدجالين وأبث دمائى الفرعونية المقدسة فى شرايين أحفادى التعساء " .

- 12 -

قال أخناتون أن ما لايدرك كله لا يترك كله . قرر الذهاب إلى الإسكندرية ليلتقى بحليم حتحوت فى الصيف . توجه إلى المنتدى الأدبى الذى يجتمع فيه شباب الكتاب بالمفكر الكبير صيف كل عام . أخفى حليم علامات المفاجأة والدهشة على وجهه، أما الشباب فقد أستقبلوه بثبات . قام حليم بتعريفهم به فأحسنوا أحترامه وتقديره . كان الحديث دائرا حول أرتفاع نسبة الأمية فى مصر إلى حوالى ثمانين بالمائة . قال حليم أن هناك عشرة بالمائة فقط من العشرين الباقين يمثلون نسبة آلمثقفين فى البلاد . قال شاب أن خمسة بالمائة فقط من هؤلاء العشرة قادرون على شراء الكتب والمجلات الثقافية، وأن أثنين بالمائة من هؤلاء الخمسة هم الذين يقرأون . سأله أخناتون بتواضع شديد :

ـ وما هو دليلك على صحة النسب المئوية التى تدعيها ؟

تدخل حليم فقال وهو يقهقه ضاحكاً :

ـ هو أن أقصى توزيع لأى كتاب لى لا يتجاوز أربعة آلاف نسخة .

حضر النادل حاملا المشروبات وراح يوزعها على الحاضرين فتوقف سير الحديث . أنتهز أخناتون الفرصة لأثارة موضوعه الاساسى بغية معرفة آراء الشباب . طرح سؤاله التقليدى فأجابه شاب :

ـ لن تعتدل الأهرامات ألا بالقضاء على مرض الماسوشيزم المتفشى بين الناس .

وقال آخر :

ـ بل بتحول نسبة الجهل إلى صفر بالمائة .

قال ثالث :

ـ قد تعتدل لو زرعت نصف صحرائنا بغيرة السخرة، أو حتى بالسخرة .

كان حليم يبتسم تعبيراً عن سعادته بأراء تلاميذه ومريديه، لكنه قال معقبا :

ـ أحب ما فى الشباب إلى قلبى نواياه الحسنة، لكن الحلول التى أستمعت إليها حلول نظرية، ولقد كنت أود الاستماع إلى رأى آخر يقول بأن يتجه الشباب إلى الجيزة ليعيدوا الأهرام بعقولهم وسواعدهم إلى ما كانت عليه، فهذا فى رأيى هو الأسلوب العملى الواقعى .

أعترض شاب ذو لحية طويلة على كل ما طرح من أفكار وأعتبرها عاجزة عن الفعل ما لم ترتبط بالإيمان القوى وممارسة شعائر الدين والأمتثال الحرفى الدقيق لأوامر الاله ونواهيه والدفاع عن هذه المبادئ بقوة النار حتى الموت .

بدت علامات الارتياح على وجه حليم حتحوت . الحوار تلقائى ديمقراطى يتباهى به أمام الفرعون، أما الفرعون فقد سافر إلى غيبوبة ماضيه البعيد حيث أصدر أمرا بأغلاق معابد آمون وتحريم عبادته ومحو أسمه من جميع المعابد .. شعوره بالندم عميق على ما فات، حين أنصرف بكامل وعيه ولا وعيه إلى العبادة والتأمل .. أهمل شئون دولته ودب الشك بينه وبين معاونيه الذين رفضوا الاله الجديد آتون . اضطر الى الاستعانة بحاشية من النوبيين واآسيويين والليبيين حماية لنفسه ولعقيدته، فأرتبك الحكم وأضطربت الحياة .

تحاور بغضب مع الشاب الملتحى حول علاقة الدين بالسياسة ولم يتوصلا إلى نتيجة . قاطعهما شاب شديد التجهم والعصبية قائلا بحدة :

ـ مناقشة رجعية .. نحن على مشارف القرن الحادى والعشرين العلم سيد الموقف .

التزموا الصمت . توجسوا شرا . تكلم شاب جميل الوجه رقيق الابتسامة :

ـ أيها الأخوة، ان الحب هو الحل الوحيد لكل مسائل الحياة .

أطلق حليم حتحوت ضحكة المجرب وتساءل :

ـ إذن فقل لنا كيف نعدل الأهرامات بالحب ؟

أجاب الشاب بثقة العارف :

ـ هذه المسألة ليست بحاجة إلى ترتيبات عقلية لانها مسألة مشاعر وأحاسيس .

أوماً أخناتون برأسه وقد أنعكست مشاعر الحب على وجه، فتذكر قسمه الدائم فى حياته الأولى حين كان يقول " أقسم بحق سعادتى بالملكة وأطفالها " .. طفرت من عينه دموع الأسى لفراق زوجته الحبيبة نفرتيتى وتمنى لو بعثت معه تشاركه فى هذه المهمة الدنيوية الشاقة .

أدرك أنـه حصـل علـى رصـيد معقـول مـن حصـيلة فكـر الشـباب المعاصـر بإيجابياتـه وسلبياته، فاستأذن فى تواضع للأنصراف، لكنه لم يتفق مع حليم حتحوت على لقاء آخر .

– 13–

من رائد التوحيد فى عالم الأنسان إلى أحفاده بأرض مصر :

" الحب فى زماننا يا أحفادى كان فيضا من نعيم الاله فحسب . الحب فناء وعبادة .. يطاول المجرات ويحتوى الآزال والآباد . تذوب به الأجساد في الأرواح فيصير الكون إلى شفافية تكشف عن أسرار الوجود، وتنتقل جنة الخلد من زمنها الغارق فى غموضه إلى زمن الموجودات، وتغدو الحياة مترعة بالنعيم، ثملة بنشوة السعادة الأبدية.

الحب يا أحفادى رقيق رهيف . أخشى أن تطبقوا على أنفاسه بما تفعلونه بأنفسكم . لقد جئت أليكم كى أحرركم من أثقال الكراهية التى تنوء بها قلوبكم، والتى تحول بينكم وبين أستعدال أهراماتكم المعكوسة" .

– 14 –

الجنود ملقون على الأرض فى حالة أعياء شديد . يلتزم هامان الصمت مجترا آلام هزيمته أمام الأهرامات المقلوبة .

أختفى خوفو . أخرج رعمسيس من جيبه ورقة . راح يراجع بنود القرارات التى أتخذها الفراعنة فى أجتماعهم السفلى قبل الخروج ...

" نحن فراعين مصر العظام، رواد الحضارة فى عالم الأنسان، علمنا أن أهراماتنا قد أنقلبت وأصبح عاليها أسفلها . أنتظرنا أن يعيدها أحفادنا أبناء القرن العشرين إلى وضعها الطبيعى فطال أنتظارنا . نحن فراعين مصر العظام، نقرر الخروج إلى الأرض لنُسْهِمَ بكل ما نملك من فكر وفن وقوة فى إعادة الاهرامات إلى ما كانت عليه .. رؤوسها شامخة فى السماء وقواعدها راسخة على أقدام أرض عرفها التاريخ.

نحن فراعين مصر العظام . أخترنا الفرعون الشاب أخناتون، الشاعر العبقرى والمهندس العظيم وأول من نادى بتوحيد الأله على هذه الأرض . قررنا إيفاده، للالتقاء بأبرز الرجال والنساء فى عالم الفكر والفن وبرجال الأديان الثلاثة، وكلفناه بتقديم تقرير لنا بعد أنتهاء جولته الأولى، حتى نتدارس معا الأسس النظرية والعملية التى سنتبعها لاستعدال أهرامتنا الخالدة .

نحن فراعين مصر العظام . قررنا إيفاد الفرعون رعمسيس الثانى لدراسة إمكانية إستخدام القوم فيما لو فشلت سبلنا القائمة على الوسائل السلمية . أما الملكة حتشبسوت فسوف تكون مسئولة عن أمان من يتقرر أستضافتهم بالقصر الكبير ممن يتسببون ــ بالسلب

أو بالايجاب ـ فى تعطيل مسيرتنا نحو هدفنا العظيم . وكلنا مدعوون للأجتماع مرة ثانية تحت الأرض بعد أجتياز المرحلة الأولى من المسيرة للتشاور والتدبر وأتخاذ القرارات اللازمة " .

شعر رعمسيس بزهو شديد لخطورة دوره القائم على فكرة القوة وقال لنفسه أن أخناتون سوف ينفخ فى الهواء حتى يتوقف قلبه عن الدق . ألقى نظرة غير يائسة على جنوده المنهمكين . أصدر أمرا إلى هامان باعداد وجبة ساخنة ومضاعفة للجنود، تحتوى على أشهى المأكولات و المشروبات . مرّ بنفسه على الجنود ليرفع من معنوياتهم ويعدهم باعادتهم إلى الأرض معززين مكرمين لو نجحوا فى تنفيذ مهمتهم المقدسة . أضطر هامان حين رأى ذلك إلى أن يحد من كبريائه ويعامل الجند بالحسنى أسوة بالفرعون الكبير .

بعد مضى أسبوع كان الجنود قد أستردوا عافيتهم .

شحنهم رعمسيس بالعزم على تكرار المحاولة، واثقا أن المهمة ستكون أخف وطأة هذه المرة بعد أستضافة قبطان وسمارة وملوخية بالقصر الكبير . وحتى يبث فى جنده الشعور بالثقة فإنه أمرهم أن يبدأوا بهرم منقرع أولا، وذلك لصغر حجمه وضمان سهولة أستعداله، وبينما كان يصدر أوامره بصوت جهورى إلى هامان فإن تساؤلا ملحا كان يشغل باله " لماذا لم تحتجز حتشبسوت رجال مجمع الأديان مع قبطان وسمارة وملوخية ؟ " .. لكن التساؤل مات بدقات قلبه المضطربة حين تنبأ بعد وقت قليل من بداية المحاولة بأنها ستنتهى إلى الفشل . الجند كثيرون . الهرم صغير . الضيوف بالقصر .. لماذا لا يعتدل الهرم ؟ ...

عاد هامان إلى سوطه النارى الملتهب وعاد الجند يصرخون وينزفون ويتساقطون، بينما الهرم راسخ فى مكانه، رأسه فى الأرض وقاعدته فى الهواء .

ظهر منقرع فجأة همس لرعمسيس بثقة شديدة أن هناك قوة مضادة لتحريك الهرم تعمل فى الاتجاه الأخر . كان رعمسيس قد أحتاط هذه المرة منذ البداية بمحاصرة الأهرام من جميع الاتجاهات ولم يكتشف وجود مقاومة بشرية على الأطلاق . قال منقرع بلهجة يقينية :

ـ ليس من الضرورى أن تكون المقاومة مرئية .

ـ فكيف نقضى عليها فى هذه الحالة ؟

ـ نحن الفراعنة ملوك الأرواح ورواد العالم السفلى بتوابيته الخالدة وأسراره المقدسة و .... قاطعه رعمسيس بعصبية :

ـ دعنا نختصر الحديث عن أنفسنا فنحن في نكسة كبرى .. ما العمل الأن ؟

ـ ألا يمكن أن نستحضر كبار الكهان من عصورهم المختلفة ؟

ـ إلى متى سنظل ننقب فى الماضى ؟ ... أما من حل مستقبلى ؟

ـ يبدو أننا تجمدنا فى مواجهة العجز .

سيطرت الحيرة وعلائم الأرتباك على رعمسيس . قال أنه يفضل الأنتحار على أعلان فشله للفراعنة وهو الذى يمجد القوة كحل أمثل للمشكلة . أعتصرت فؤاده مرارة اليأس وهو يلقى على الجند أمرا بالانسحاب من الجيزة إلى سيناء فى صورة غير مرئية، أما هو فينبغى أن يريح أعصابه من عناء الفكر وألام الفشل الذريع .

رأى أن يمضى سهرته متنكرا بأحد الملاهى الليلية بشارع الهرم . لم ينس قبل أنصرافه أن يوصى هامان بمعاملة الجنود معاملة طيبة حتى يستردوا قواهم مرة ثالثة .

– 15 –

صدحت الموسيقا بإيقاع صاخب وراحت الراقصة تتمايل يمينا ويسارا كاشفة عما خفى من جسدها بين الحين و الآخر . صفت الموائد عبر أرجاء الصالة وأركانها وأمتلأت بصنوف شتى من أفخر المأكولات والمشروبات . تنبعث بين اللحظة والآخرى أصوات فرقعة أنفصال السدادات الفلينية عن زجاجات الشمبانيا وسط قهقهات الجالسين وضحكاتهم المجلجلة . أحتلت النساء معظم المقاعد وكن جميلات للغاية . طغت ضحكاتهن المميزة على ضجيج الأصوات فأضفت على الجو سعادة أسطورية منفصلة عن الوعى بالزمان والمكان والأسباب والمسببات .

جلس رعمسيس فى زى عصرى إلى أحدى الموائد وطلب عشاء من اللحم المشوى وشرابا من عصير البرتقال . سيطر عليه شعور بالخجل من نفسه وأصابته الرؤية بشى من التقزز أفقده الشهية فأعاد معظم الطعام إلى النادل . أخذ يدخن سيجارة من سيجارة وقد بان عليه التوتر والملل . بدأ يفكر فى الأنصراف لشعوره بالوحدة وإحساسه بالأغتراب عن هذا المجتمع .

لم يكد يتأهب للأنصراف حتى تسمر فى مكانه من شدة الدهشة . أخناتون يدخل الملهى بحياء مستتر لم ينجح فى أخفائه بالرغم من شدة حرصه على ذلك . عندما لمح رعمسيس توجه من فوره إلى مائدته كما لو كان طوق نجاة ألقى أمامه فجأة . سأله بدهشة :

ـ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

أجاب رعمسيس ببساطة شديدة .

ـ الذى جاء بك .

- انه اليأس

- بل الحزن

- قد يكون الاثنان معا

ـ إذن فهو الأسى على ما صار إليه أحفادنا من عجز وأنحلال .

ـ وماذا تنوى أن تفعل هنا ؟

ـ سوف أطرح عليهم سؤالى عن سر أنقلاب الأهرام حتى أستكمل تقريرى .

ـ لن تجنى منهم سوى الضحك والهراء فكلهم سكارى .

بعد برهة قصيرة من التأمل قال أخناتون :

ـ لم لا نشاركهم اللهو والشراب حتى نستطيع الاندماج معهم ؟

ـ لقد راودتنى نفس الفكرة لكنى خجلت من التصريح بها لجلالتك .

ـ لا حياء بيننا، فنحن أصحاب رسالة واحدة .

****

بعد زمن قليل سرت النشوة فى أوصالهما فراحا يصفقان ويرقصان. ذهب أخناتون إلى مدى أبعد من رعمسيس حين قفز إلى المسرح وأخذ يصفق للراقصة ويهتز معها، ثم يضع أوراقا مالية معاصرة فى صدرها. تعالت ضحكات رعمسيس بالرغم من مراعاته التحفظ فى سلوكه كرجل حرب يتسم بالشدة وجفاف الطبع .

همس أخناتون بكلمات فى أذن الراقصة فانقلبت من فورها ترقص على يديها بدلا من قدميها وسط تهليل الجماهير وهتافات أستحسانهم لما يرونه من محظور . أخذوا يقذفون أخناتون والراقصة بالورود تعبيراً عن سعادتهم بهذا الأنقلاب الجديد فى أسلوب الرقص الذى أتاحته لهم كلمات أخناتون الغامضة . كان رعمسيس مدركا لمضمون تلك الكلمات التى همس بها أخناتون فى أذن الراقصة والتى أدت بها إلى أن ترقص بالمقلوب . تحرك من مقعده فى ثبات واتجه إلى رجل سميك يحشو فمه بالطعام . همس له بنفس الكلمات منتظرا الأجابة . أنفلتت من الرجل ضحكة عفوية صدرت من أعماقه فأطارت الطعام من فمه وتناثر على وجه الجالسين . رأحو يضحكون بهستيرية ويمسحون أثار الطعام المتناثر على وجوههم . ترك الرجل السميك مقعده وأخذ يجرى بين الموائد المتراصة وهو يقول لهم :

ـ هل سمعتم ؟ .. لقد أنقلبت الأهرامات ... ها ها هع ....

أنتشرت موجات الضحك كالعدوى الوبائية بين الموائد، بينما تمادى أخناتون فى رقصه وتهريجه مع الراقصة حين عاد رعمسيس إلى مقعده متخاذلا .

فجأة توقف أخناتون عن الرقص ونزل من خشبة المسرح عائدا إلى مائدته مصابا بحزن عميق، أستقبله الجمهور بتصفيق شديد حتى جلس على مقعده أمام رعمسيس . قال بأسى شديد :

ـ لا فائدة ... لا فائدة ... لا فائدة .

آلاف الجنيهات تلقى بلا حساب . بعض لا بسى العاقلات الحريرية يقدمون الهدايا الذهبية والثمينة إلى الراقصة . يتسابقون إلى ذلك بلهفة وأندفاع . سأله رعمسيس :

ـ ألا تلاحظ وحه الشبه بين معظم الحاضرين وبين قبطان مراد عثمان ؟

ـ لكنى ألمح بينهم رجالا مهمين من ذوى المناصب العليا .

هز أخناتون رأسه مؤيدا رعمسيس . صمت قليلا وبدت على وجه أمارات التفكير الجدى . قال رعمسيس :

ـ لقد قررت العودة إلى ماضغ اللبان لأعلنه بفشلى وأسأله المعونة من جديد .

قال أخناتون وهو شارد :

ـ أما أنا فقد أتخذت قرار آخر، يتعلق بحليم حتحوت .

– 16 –

أطلق أبو الهول زعقة صارخة تردد صداها فى الآفاق بعد أنسحاب رعمسيس . لم يتبين الفراعنة كما لم يتبين أحفادهم المعاصرون مغزى هذه الصرخة حتى الآن .

– 17 –

قال الأمريكى لرعمسيس أن أباه ثرى جدا يمتلك العديد من المصانع التى تخدم أغراض السلم والحرب . دبر لقاء بينهما فى نيورك . سجل رعمسيس بأمانة نفقات سفره وأنتقالاته . أحتفظ بكافة الفواتير والمستندات فى حافظته لتقديمها للمجلس الفرعونى بعد العودة .

ما أن وصل رعمسيس إلى أرض المطار الكبير حتى فوجى بمظاهرة عدائية من اليهود الأمريكيين فى أنتظاره . كانوا يرفعون لافتات تنادى بعودته إلى " أرض السخرة" وتذكره باستعبادهم فى عهد ابنه منفتاح . واجه رعمسيس الوجوه الصارخة بابتسامة غامضة ملهمة تشابهت كثيرا مع أبتسامة أبى الهول . أستقبله الأمريكى الأب بحرارة بالغة، وأصطحبه فى عربة فاخرى إلى فندق شهير .

خلف الزجاج المضبب ماجت حياة تفوق فى غرابتها أقصى شحطات خياله . زاغت عيناه لعجزهما عن ملاحقة سيل العربات والأضواء والدراجات البخارية واللافتات الملونة وإبتسامة الأمريكى المشفقة . أمام ألة صماء توقفت العربة وأشار الأمريكى له بالنزول . دعاه لتناول مشروب ساخن سريع . لم يفهم رعمسيس مقصده الا حين ضغط باصبعه على زر فنزل الكوب فارغا ثم ضغط زرا ثانيا فنزل المشروب . شرب رعمسيس نظرة الأمريكى المشفقة مع القهوة الساخنة وأنتظر حتى ألقى الأول بكوبه الفارغ فى الصندوق المجاور للآلة ثم فعل مثله وهو يغالب أفتضاح توتره الداخلى الشديد . توقفت العربة أمام الفندق . تعثر رعمسيس أثناء نزوله . تناول الخدم الحقائب . كانت ركبتاه ترتعشان داخل المصعد المكيف حين ضغط الأمريكى على زر فطار المصعد إلى أعلى بسرعة فائقة . سقط قلبه بين ضلوعه لحظة توقف المصعد . برزت عيناه حين فتح الباب من تلقاء نفسه . حاول إعادتهما إلى طبيعتهما تحاشيا للنظرة المشفقة دون جدوى .

أمام مائدة العشاء وبعد تناول المشهيات الكحولية بدأ يسترد ثباته لاحظ أن الأمريكى لم يعتذر له عن المظاهرة العدائية ولو من باب المجاملة الزائفة .

تم الأتفاق بينهم على جميع النقاط منذ الاجتماع الأول ... رعمسيس يدفع والأمريكى يمول منطقة الأهرام بمعدات الأزاحة والرفع الحديثة التى تعمل الكترونيا . تحدد موعد التنفيذ فى الاجتماع الثانى الذي عقد تحت تمثال الحرية . لم يتمالك رعمسيس نفسه فى التعبير عن أنبهاره الشديد بهذه الحضارة الحديثة التى كادت تخلب عقله . لكنه عاد يقول بنبرة أعتزاز واثقة يشوبها الأحساس بالغيرة والقلق :

ـ حضارة تفتقر إلى الروح .. حضارة لن تعرف الخلود .

قال الأمريكى بلا أنفعال :

ـ وفى الوقت نفسه فإنها الحضارة الوحيدة التى ستمكنك من أستعدال أهراماتك المقلوبة.

تجنب رعمسيس الأستمرار فى الحوار على هذا النحو خشية أن يتراجع الأمريكى عن أتفاقه، فآثر أن يحتفظ لنفسه بعظيم تقديره لنفحة الخلود الكامنة فى روح حضارته، عسيا بأن يكتشف الأمريكى ذلك بنفسه يوما ما .

– 18 –

عاد رعمسيس إلى الجزيرة وجمع جنده . فى اليوم التالى وصلت المعدات الالكترونية البالغة الضاخمة، ومعها خبير أمريكى في طول هامان وعرضه . حضر معهم مترجم مصرى شاب يعمل بقسم الحضارة فى إحدى الجامعات الأمريكية .

دب العمل بحماس حول الأهرامات حيث دقت الأوتاد الخرسانية فى لمح البصر، ومدت المجسات المعدنية والقوابض الضخمة لتحيط بأوجه الهرم الأربعة . كان الاختيار قد وقع على هرم خفرع لبداية التجربة . طلب الخبير عشرة جنود فقط ففوجئ بظهورهم على الفور باشارة من سبابة رعمسيس . تردد أن يسأل تفسيراً لذلك لكنه أثر السلامة خشية أن تصيبة اللعنة التى قرأ عنها قبل مجيئه مصر .

قبل أن تدور الآلات سأل رعمسيس المترجم المصرى الشاب عن سر بقائه فى أمريكا دون التفكير فى العودة إلى مصر . أجابه الشاب بزهو :

ـ لقد أعتدت الحركة والتقدم والتغيير باستمرارية خلاقة متجددة .

ـ فلماذا لا تأتى إلى هنا لتعلم أخوانك ما تعلمته وأعتدت عليه ؟

ـ قد أفكر فى ذلك يوما ما .

ـ ومتى يأتى هذا اليوم ؟

ـ بعد أن تعود الأهرامات إلى قواعدها الصحيحة .

ـ أذن فهى مسألة أيام معدودة .

ـ هذا إذا نجحنا فى المحاولة .

قال رعمسيس بانزعاج بالغ :

ـ وهل تشك فى ذلك ؟

ـ علمتنى أمريكا الشك فى كل شئ .

ـ يخيل إلى أنك لم تعد مصريا .

****

غطى ضجيج الآلات الدائرة على الصوتين المتحاورين وعلى كل الأصوات . أرتجت الأرض أرتجاجا شديداً وقفزت بسمة على وجه رعمسيس معلنة عن بلوغ أمل جديد فى النجاح . أخذ الخبير الأمريكى يجرى يمينا ويسارا وهو يصدر تعليماته من خلال المترجم إلى الجنود العشرة لضبط أتجاه الآلات .ظهر خفرع.صافح رعمسيس بحرارة وقال له :

ـ لقد فقدت طمأنينة الموت منذ أن أنقلب هرمى .

ـ لنأمل معا أن تعود أليك بإذن الرب .

ـ أنى أتساءل لماذ لم تسند الينا أدوار خلال أجتماعنا السفلى ؟

ـ من ؟

ـ أنا وخوفو ومنقرع .

ـ بل أسند إليكم دور فى غاية الأهمية لكنكم كنتم تتجادلون أثناء الأجتماع .

أصيب خفرع بالحرج الشديد حتى أنه أختفى لبرهة ثم ظهر من جديد ليسأل رعمسيس فى حياء :

ـ أيمكن لجلالتك أن تذكرنى بهذا الدور حتى أبلغه لزملائى ؟

أخرج رعمسيس من جيبه مذكرة صغيرة نظر فيها بتمهل ثم قال له :

ـ أن تقوموا بتوعية أحفادكم بضرورة قبول الموت وأعتياده، وأن تحولوا بينهم وبين تقديسه الذى هو فى الحقيقة الأمر رفض له .

ـ ومتى نقوم بهذا الدور الخطير ؟

ـ حالا وبدون تأخير، فربما ساهمت تلك التوعية بالمساعدة الفعالة فى أستعدال الأهرامات.

أختفى خفرع ...

أعلن الخبير الأمريكى فشله فى تحريك أى جزء من الهرم باستخدام كل ما لديه من إمكانيات متطورة تمثل أقصى ما توصلت إليه عبقرية العلماء من أفانين الأبتكار . نظر أليه رعمسيس نظرة أستنكار قاسية فقال له الخبير بهدوء حزين والخجل يتساقط مع عرقه :

ـ اطمئن .. سنرد اليك كل ما دفعته ثمنا لهذه المعدات، فالمسؤولية لا تقع الا علينا .

أشعل رعمسيس سيجارة بعصبية فائقة . تملكه شعور عميق بالسخط والغضب من لاشئ حين لم يجد شيئا يوجه اليه سخطه وغضبه ... أى قوة عاتية جبارة تلك التى تتحداه فتهزم جيوشه التى لا حصر لها وتقهر آلاته الالكترونية المستحدثة ؟ .. لابد أن هناك إرادة أقوى من كل الأرادات تهيمن على مصير أحفاد مصر وتقرر ألا أمل فى أستعدال ما أنقلبوا اليه بأهراماتهم المقلوبة ... وحين يضيع هذا الأمل فلا يبقى سوى الموت .

– 19 –

بيان عسكرى من رعمسيس الثانى إلى الشعب المصرى :

" بنى وطنى .. أحملكم مسئوولية الأنقلاب وأنذركم بشديد العقاب . سياتى يوم تتصارعون فيه على الطعام وقد يفكر بعضكم حينئذ فى أكل البعض الآخر . لا تأخذوا تحذيرى مأخذ الهزل، فإنى أنقل لكم صورة صادقة من رؤيتى التنبؤية لمستقبلكم المترتب على الأنقلاب . ينبغى ـ وبأسرع ومن ومض البرق ـ أن تبدؤوا بإعمال عقولكم وشحن وجدانكم كى تعتدل الأهرامات من جديد . ألا هل بلغت ؟ .. فلقد أعذر من أنذر " .

– 20 –

فى الطريق إلى القصر الكبير طلبت حتشبسوت من حليم حتحوت أن يرتدى زى الفراعنة فلم يمانع، بل سارع باجابتها إلى طلبها بمجرد أن أحضرت له الملابس . أسترعى أنتباهها بشدة أنه المحتجز الوحيد الذى لم يسأل عن سبب أحتجازه أو عن المكان الذى تقصده بصحبته . سألته عن السبب فأجاب :

ـ رحلة الحياة متعددة المقاصد، ولكنها تنتهى دائما إلى شئ واحد

ـ لكن مقصدنا الآن يعزلك عنها لزمن غير معروف .

ـ سأحاول الاستفادة من زمن العزلة بكتابة عمل جديد .

ـ ألاحظ أنك متوائم مع نفسك فى جميع الظروف .

ـ وهل لديك بديل ؟

ـ أنا الجديرة بسؤالك، فأنت من كبار مفكرى أحفادنا .

أجابها ساخرا :

ـ والدليل على ذلك أنكم قررتم أستضافتى !

ـ لقد أستضافك أخناتون لأن مواقفك لا تمثل فكرك العظيم .. أليس كذلك ؟

ـ أن العبرة بما أقدمه من فكر بغض النظر عن مواقفى .

ـ أنك مثال صارخ لسلبية المثقفين .

ـ أختلف معك يا جلالة الملكة . فكتبى وحدها تبرئنى من التهمة .

ـ الكتب وحدهالا تكفى، خاصة وأنك تعلم أن غالبية شعبك لا تعرف القراءة والكتابة .

ـ أن كنت تقصدين الوسائل الحديثة الأخرى كالإذاعة والتلفزيون، فلها كتابها ولست أدعى أننى واحد منهم .

نظرت إليه حتشبسوت بأنبهار لم تملك إخفاءه وقالت له ..

ـ إنك زئبقى الإجابة بارع فى المراوغة، يستحيل الإمساك بك من أية ناحية .

تجاهل إهانتها المستترة وقال لها :

ـ لى عندك جلالتك رجاء واحد .

ـ تفضل .

ـ أريد بغرفتى ورقاً وقلما وسجائر وشايا وبناً وقليلاً من المشروبات الروحية .

وعدته بصدق شديد .

ـ ستجد بغرفتك كل ما تحتاج إليه .

قال حليم حتحوت لنفسه أن شهوة إبداع الفن تفوق فى روعتها أمتع الشهوات والملذات، وسواء ألقى به فى قصر بالصحراء أو فى باخرة على ظهر البحر، أو حتى فى سرداب تحت الأرض، فإن الإبداع يعنى حياته وحياته تعنى الإبداع، ولا معنى لأى شئ فى الوجود يتعارض مع هذا المعنى، فليفعل الفراعنة ما يشاؤون لتحقيق حلمهم الكبير، أما هو ـ رغم تعاطفه مع نواياهم المخلصة ـ فرؤيته لمسألة الإنقلاب لم تتغير . الأهرام ليست مقلوبة . الأهرام فى وضعها الطبيعى . وما حدث ليس إلا إفرازاً طبيعاً للواقع، والواقع نفسه ما هو إلا إفراز طبيعى لما يسمى بإنقلاب الأهرامات .

– 21 –

بعد جدال طويل أتفق الفراعنة الثلاثة على أن مشاهدة برامج التلفزيون وتحليلها هى خير وسيلة لدراسة كيفية تفكير أحفادهم المعاصرين والتى تشكل فى النهاية رؤيتهم للحياة والفن والموت . نزلوا بأحد الفنادق الفاخرة بالاسكندرية . حجزوا لأنفسهم جناحاً خاصاً .

****

قبل أن تلملم الشمس أطرافها منسحبة وراء البحر الفسيح، هفهفت فى الجو نسمات راقصة بلحن الجنيات الساجدات .. ومع أختفاء القرص الدموى أنبعث الماضى السحيق من أغواره البعيدة مخيماً على أرواح الفراعنة الثلاثة، وعبقت رائحته بشجن التاريخ فقالوا كان وكان وكان .. أما الحاضر فقد أجمعوا بالحواس والظنون أنه عديم اللون والطعم والرائحة .. فماذا عن المستقبل ؟

****

فى الليلة الأولى التف الثلاثة حول التليفزيون وأمامهم المشروبات الساخنة والمثلجة والسجائر وراحوا يراقبونه فى صمت تام . أمسك كل منهم بقاموسه العصرى للبحث عن الكلمات الصعبة . بعد يومين كاملين أنتاب المسئولين بالفندق قلق شديد على النزلاء الثلاثة فراحوا يطرقون أبوابهم ولا مجيب . أقتحموا عليهم الصالة المشتركة بالجناح فأكتشفوا أنهم يغطون فى نوم عميق، ثم تبين أنهم لم يتناولوا الطعام يوماً كاملاً دون أن يشعروا بذلك .

أعدت لهم مائدة حافلة بالمأكولات والمشروبات تعويضاً عن اليوم المفقود . بعد أن شبعوا عاودا إلى الصالة من جديد وأخذوا يشاهدون البرامج . بعد مرور يومين تكررت نفس الواقعة مرة ثانية . أنتاب الشك مدير الفندق وأرتاب فى أمر هؤلاء الثلاثة فاتصل بجهات رسمية يستفسر منها حقيقتهم الغامضة . بعد قليل جاءه الرد من إدارة يطلق عليها إدارة المخابرات العامة أن هؤلاء الثلاثة هم خوفو وخفرع ومنقرع .

ولما كان مدير الفندق رجلاً واقعياً علمى التفكير منطقى النظرة إلى الأشياء، فإنه طلب أجازة مفتوحة ليريح أعصابه بعد أن بدأ يشك بشدة فى قواه العقلية . تصادف فى تلك اللحظة وقوف مذيعة حسناء تطلب منه حجز غرفة لإقامتها .

أستمعت إلى حواره مع المسئولين فعرفت بوجود الفراعنة بالفندق .

نسيت مسألة الحجز . هرعت إلى جناحهم ومعها جهاز تسجيل صغير .

أحسنوا أستقبلها . وافقوا على تسجيل حوار معهم لإذاعته فى برنامج المجلة الثقافية الذى تعده وتشرف على تقديمه بالإذاعة .

ـ ما رأيكم فيما شاهدتم من برامجنا التليفزيونية ؟

التزم الثلاثة الصمت حتى أنها أعتقدت أنهم مازالوا مبهورين لرؤية هذا الجهاز الغريب على عصرهم. كررت السؤال مرة أخرى .

ـ هل أعجبتكم برامج التلفزيون ؟

قال خوفو :

ـ نحن الذين نوجه إليك هذا التساؤل راجين أن تتفضلى بالإجابة عليه.

قالت المذيعة الشهيرة بانطلاق يدل على الثقة بما تقول :

ـ حقيقة أنها برامج شيقة ومسلية جداً، خاصة برامج الإعلانات وحفلات سمارة وملوخية الساهرة . قال خوفو بلهجة يقينية

ـ لو أخترع التليفزيون فى عصرنا لأختلف الأمر تماماً

ـ كيف ؟

يؤلمنى أنك لن تفهمى ما سأقوله مادمت معجبة ببرامجكم .

قالت باستنكار فيه دلال :

ـ أننى خريجة جامعة معترف بها دولياً

ـ أما أنا فلست معترفا بها لأنها تخرج كائنات لا تلتزم الصدق فى الحديث .

شعرت الحسناء بحرج شديد . كادت تنكمش إلى داخلها أمام هيبة الفرعون وجلاله . أدركت أن عدم مصارحته بحقيقة أمر ما يعرض على الشاشة الصغيرة قد أوقعها فى مأزق لا تحسد عليه . لماذا لم تصارحه بالحقيقة وكيف ورطت نفسها فى مجاملة مجهولة الهدف ؟ .. قالت وقد أحنت رأسها خجلاً:

ـ أسفة، لقد كذبت عليك بالفعل، ويمكننى الآن أن أعبر لك عن رأيى بصراحة .

ـ لا داعى لذلك، فإنى أعرفه تماماً.

ـ إذن فهل يمكننى الأستنارة بآرائكم لإصلاح هذا الجهاز الفاسد ؟

سكت خوفو طويلاً ثم قال :

ـ عندما تنصلحون أنتم سينصلح تليفزيونكم .

أتجه خفرع إلى غرفة نومه مغالباً التثاؤب المستمر، أما منقرع فقال ملاطفاً وقد استعد لمغادرة القاعة .

ـ دعيه لحاله فقد أنهينا الحديث

ـ قالت المذيعة لخوفو برجاء :

ـ هل تسمح لى جلالتك بسؤال أخير ؟

ـ تفضلى .

ـ لماذا آمنتم بفكرة الخلود ؟

ـ لأننا رفضا الموت فقدسناه .

ـ وهل أثبتت تجربتكم مع الموت ـ بعد موتكم ـ صدق إيمانكم بالخلود ؟

ـ نعم ، ولهذا جئنا نعلمكم ونحذركم من تكرار الخطأ .

ـ لكنكم لم تفعلوا شيئاَ بل أكتفيتم بالفرجة على التليفزيون والنوم .

ـ نحن نؤمن بأقصر الطرق للعمل الجاد .

ـ وماذا رأيتم ؟

ـ إنكم لا تفهمون سر الحياة .. فكيف ستفهمون سر الموت ؟

وقف خوفو فتوقفت المذيعة عن الكلام . حياها وأنصرف . بعث برسالة سرية إلى الملكة حتشبسوت يطلب فيها أستضافة كبير كبراء الثقافة بالقصر الكبير ثم أستسلم ورفيقاه لليأس بأقتناع شديد.

****

أقترح منقرع على رفيقيه وسيلة عصرية حديثة للتغلب على ظاهرة النوم التى تفشت بينهم منذ جلسوا إلى التليفزيون.

وافقوا على تنفيذ الأقتراح فأختفى منقرع وعاد بعلبة كبيرة مليئة بالأقراص المنبهة شديدة المفعول . تناول كل منهم عشرة أقراص دفعة واحدة ... لكنهم راحوا فى سباق عميق .

ـ 22 ـ

من أرشيف التحقيقات الجارية بالعالم السفلى فى زمن الإستعدال :

س ـ أسمك ؟

ج ـ أمان .

س ـ ديانتك ؟

ج ـ الكون .

س ـ وطنك ؟

ج ـ العالم .

س ـ أسرتك ؟

ج ـ البشرية .

س ـ أنت متهم بالهرب من الحدود المصرية .. ما قولك ؟

ج ـ أرفض الإجابة .

ـ 23 ـ

بحياء شديد ضغط أخناتون جرس الباب وأنسحب خطوتين إلى الخلف . فتح الباب رجل ناهز السبعين . فى فمه غليون وفى يده رواية أمريكية . سأله أخناتون برقة :

ـ سيادتك الدكتور يوسف فخر الدين موسى ؟

أجاب العالم الكبير والأديب الشهير بتواضع شديد :

ـ نعم، تفضل بالدخول لو سمحت .

دخل أخناتون . تبع مضيفه إلى غرفة الأستقبال ثم سأله :

ـ ألا تعرفني ؟

ـ ومن لا يعرف أخناتون ؟

ـ لكن ملامح وجهك لم تعترها الدهشة أو التعجب حين رأيتنى .

ـ لقد علمتنى الحياة ألا أندهش لشى قط .

تبادلا نظرات تنم عن المودة المتبادلة .

ـ جئت زائراً لمنزلك حتى أناقشك فى مسألتين ، الأولى تتعلق بأنقلاب الأهرامات، والثانية بالموت لارتباطه الوثيق بالمسألة الأولى من جهة وبأعمالك الأدبية من جهة أخرى .

أعتدل الدكتور يوسف فى مجلسه محاولاً السيطرة على مشاعره التى تجيش دائماً بالانفعالات الصادقة ثم قال :

ـ دعنى أكون صريحاً معك .

ـ هذا ما أبتغيه تماماً

ـ لن أناقشك حول المسألة الثانية لأننى أرفضها تماماً .

ـ لماذا ؟

ـ لأنى أرى فى الموت ظلماً غير مبرر، ولذا فإنى أرفض فكرة الحياة أيضاً ما دامت تنتهى بالضرورة إلى الموت .

ـ لكنك قبلت الحياة حتى هذه اللحظة .

ـ وهل تسمى حياتى هذه حياة ؟

ـ أرجو المزيد من التفسير .

أستأذنه الدكتور يوسف وأتجه إلى إحدى الغرف المجاورة . عاد حاملاً معه ألة كمان موسيقية . كان الحزن مخيماً على وجهه لدرجة أدهشت أخناتون . بدأ يفسر لضيفه ما أراد على إيقاع حزين لنغمان الكمان كما لو يعزف لحن أغنية حفظها عن ظهر قلب . ويستمع أخناتون بدهشة كبيرة إلى الدكتور الذى تشنجت رقبته على الكمان وهو يغنى ...

" أنا أستاذ جامعى وكاتب روائى ومسرحى . تنشر أبحاثى بالخارج . تترجم أعمالى الأدبية فى أنحاء العالم . لكن عامة الشعب لا يشترون كتبى سواء لأميتهم أو لارتفاع أسعار الطباعة أو لأختفاء النقاد أو لانصراف الناس إلى مشاهدة التليفزيون . أستاذ جامعى . كاتب مسرحى وروائى ولست أملك عربة . أنحشر فى المواصلات العام فتسرق حافظتى وتتمزق ملابسى وأشم روائح عفنة وأرى مناظر شاذة ومقززة. دائماً ما تجدنى أتردد طويلا أمام الفكاهى قبل أن أتخذ قراراً جريئاً بشراء كيلو جرام واحد من الفراولة لأولادى" .

توقف الدكتور عن الغناء . أخذ يعزف لحناً حزيناً على الكمان . كانت عيناه تلمعان بدمع محبوس . بعد قليل واصل الغناء مرة ثانية ....

" أستاذ جامعى وكاتب روائى ومسرحى . لا يمتلك شيئا غير راتبه الشهرى . مع هذا يحاسبه موظف الضرائب كما لو كان لصاً يتعمد سرقة الدولة . يأخذ منى معظم ما تقاضيته من أجر كتاباتى . أستاذ جامعى وكاتب روائى وسرحى . أؤدى وأجبي بأمانة فى كل مجال أعمل به . ومع هذا فإنهم يسرقون الحرارة من تليفونى . يعطونها لتليفون الجزار . يطفئون النور أثناء قراءتى . يقطعون الماء أثناء أستحمامى . يضاعفون سعر حذائى عشرات المرات . أما راتبى الشهرى فلا يتغير أبداً "

يراقب أخناتون الظاهرة بمزيج من الأشفاق والإنبهار والدهشة والحسرة . يلقى الدكتور يوسف بالكمان على أحد المقاعد . يستبدل بها أنغاماً يصدرها من فمه ويرقص على " الواحدة ونصف " بوقار شديد مصفقاً بيديه على هذا الإيقاع . تراود أخناتون رغبة جامحة فى الرقص معه، لكنه يخنقها على الفور حين تذكر ما حدث له فى ملهى شارع الهرم . يتعب الدكتور . تتهالك أنفاسه يسقط جالساً على أحد المقاعد ويقول بسخرية :

ـ أبعد هذا كله تسميها حياة ؟

ـ لكنك تقبلها يا عزيزى .. وترقص !

ـ على العكس تماماً . لقد رفضتها وقررت الموت منذ زمن طويل، ونفذت قرارى بالفعل .

ـ إذن فمن هذا الذى أتحدث معه الآن ؟

ـ إنه جسدى، أبقيت عليه خدمة لأولادى الذين لا ذنب لهم أن يعانوا اليتم ثمناً لأفكارى

***

قارن أخناتون بين " آتون " وبين الألـه الذى علم أنـه بعث إلـى أحفـاده ـ بعد وفاتـه بزمان طويل ـ بأنبياء ثلاثة . تفيد حصيلته التى كونـها من المعلومـات منذ بعثـه بـأن الله هو خالق السموات والأرض، وأنـه خـالق آتـون أيضـاً .. هو الذى يحيى ويميت . يعز من يشاء ويذل من يشاء . أما أعظم صفاته على الإطلاق فهى " العدل " .

وتساءل أخناتون بدهشة " لكن ما هذا الذى أسمع ؟ "

قال أخناتون :

ـ فما رأيك فى أنقلاب الأهرامات ؟

ـ لقد أنقلبت في نفس اليوم الذى نفذت فيه قرارى بالموت .

ـ وماذا بعد ؟

ـ أعتقد أنها لن تنعدل إلا إذا عادت إلىّ روحى من جديد

ـ ومتى تعتقد أنها ستعود إليك ؟

ـ حين أقبل فكرة الموت .

ـ ومتى تقبلها ؟

ـ حين تعتدل الأهرامات .

ـ ومتى يحدث ذلك ؟

ـ هذا ما لست أعرفه .

صمت أخناتون قليلا ثم أخرج من جيبه جهازاً إلكترونياً خاطب من خلاله خوفو وخفرع ومنقرع قائلاً بحدة :

ـ كفاكم نواحاً أيها الفراعنة .. أستمعوا إلى الحوار .

أعاد الجهاز إلى جيبه وعاود الحديث إلى مضيفه .

ـ بعض النظر عن معتقداتك الفكرية عن الحياة والموت، ماذا تقترح علينا كى نعدل الأهرامات ؟

ـ لست أقترح عليكم شيئاً وإنما أقترحه على أحفادكم

ـ ما هو ؟

ـ أن يكفوا عن النفاق كفاً هرمياً من رأس الحكم إلى قاعدة الجمهور .

ـ لكن النفاق الذى أعتدناه يتجه دائماً من القاعدة إلى الرأس

ـ ذلك لأن الرأس يقبله ويشجعه ولهذا دمر اليهود مطاراتنا حين ترك القواد العسكريون قواعدهم وذهبوا فى أستقبال وزير الحرب أنتظاراً لهبوط طائرته المنحوسة ؟

ـ هذا يعنى أنك ترى أن النفاق هو السبب الحقيقى لوقوع ما أسميتموه بالنكسة ؟

ـ هذا ما أعنيه تماماً، وهو ما أحذر من أستمراريته حتى الآن

ـ وهل فعلت شيئاً للإعلان عن هذه الدعوة ؟

ـ لقد نشرت العديد من المقالات مطالباً بالقضاء على النفاق من قمة الهرم لا من قاعدته، كما طالبت بإنزال عقوبة قطع اللسان من " لغلوغه " على كل من يتملق رئيسه أو حاكمه .

تنهد أخناتون محاولاً التنفيس عن همه المتضاعف ثم أغتصب أبتسامة وقال :

ـ كم أسعدنى لقاؤك أيها الحفيد العزيز .

ـ يسرنى أن أستضيف جلالتك فى أى وقت تشاء . وأرجو أن تبعث بتحياتى الحارة إلى كل أجدادى الفراعنة .

أنصرف أخناتون . بعث ببرقية إلى رعمسيس يخبره فيها أنه سيلتزم الراحة يوماً كاملاً يعيد فيه حساباته ويريح رأسه المكدود، كما طلب منه أن ينوب عنه فى زيارته المقررة للفيلسوف المصرى المعاصر " على عزيز سهدوم " راجياً أن يخاطبه برقة وأن يتحاشى جفاف لهجته العسكرية خلال الحوار .

ـ 24 ـ

من خوفو وخفرع ومنقرع إلى شامبليون :

" .. أما وقد أكتشفت الحجر يا شامبليون فبماذا يتذرع الأحفاد من حجج يبررون بها سقوطهم ؟ .. لقد أمسك الأطفال بأجدادهم من أرجلهم وعلقوهم حيث الرؤوس إلى أسفل . ودفنت الرؤوس فى التراب ومصر بساط أخضر . تهابطت الأرواح إلى الظلمات والنيل يشق الوادى فى الكرنك والأقصر .. أما بعد أندثار النجوم فسوف تصطف هوائيات الجهاز اللعين لتكون شواهد عصرية لأكبر مقبرة جماعية يشهدها التاريخ " .

ـ 25 ـ

أمتعض رعمسيس لتكليفه الإضطرارى بهذه المهمة لتعارضها مع طبعه الذى أكتسبه بعد خمسة عشر عاماً من حروب طاحنة أنتهت بإتفاقية سلام بينه وبين الحيثيين . لكنه وجدها فرصة لا بأس بها للتأمل فى لحظات لقاء مدبر بين رجل فكر ورجل حرب قد تضيف إلى كل منهما شيئا جديداً . أستقبله على عزيز سهدوم ببشاشة ورحب به بعد أن عرفه . قال سهدوم وهو يرتشف الشاى :

ـ لعلك سمعت عن شعارى الذى لا أمل أعلانه " دع ما للعقل للعقل وما للقلب للقلب ." تناسى رعمسيس صولاته وجولاته بعربته الحربية فقال :

ـ يعجبنى هذا الشعار الموضوعى كثيراً .. لكن يبقى أن نطبقه على مشكلتنا .

أعتدل سهدوم فى مجلسه وخلع نظارته السميكة وأنطلق فى الحديث :

ـ إن أشد ما يثيرنى ويزعجنى من أخوانى الفراعنة المعاصرين قولهم دائماً " ربنا يسهل " أو " ربنا يستر " أو " ربنا يعدلها " .. فكأنما ربنا متفرغ لمصر فقط دوناً عن بقية كونه العظيم . أنهم يقلبون الأشياء بفعلهم ثم يطلبون من ربنا أن يعدلها .. شئ محير أيها الجد العظيم .

ـ أنا معك يا سهدوم فيما تقول .. لكن ما العمل أو بماذا تنصح ؟

ـ لقد بح صونتى من تكرار بأن يفصلوا ما بين الدنيا والدين .. بين ما يتعلق بالعقل وما يتعلق بالروح . بين ما هو نسبى وما هو مطلق .

ـ لكنى أعلم أن بدينكم تعاليم رائعة لممارسة حياة دنيوية فاضلة .

ـ هذا صحيح، لكنه يخص كل إنسان بمفرده ـ من وجهة نظرى .. ولا يجوز لفرد أن يلزم به جماعة أو لجماعة أن تلزم به فرداً .

ـ لماذا لا تقولها بصراحة " أن الدين شئ والسياسة شئ آخر " ؟

ـ ما هذه المقولة إلا أستنتاج ضمنى لمقولتى ذات الشمول الأوسع .

ـ وهل هذا يعدل الأهرام ؟

ـ بلا أدنى شك .

ـ كيف ؟

ـ لقد ألفت عشرات الكتب التى تجيب عن هذا السؤال .

ـ وهل أثمرت كتبك عن نتيجة فعالة ؟

ـ لم تثمر إلا عن فقد بصرى و أتهامى بالكفر والإلحاد .

ـ وهل أنت مؤمن بالله ؟

ـ هذا شئء يخصنى وحدى .

ـ إذن فقل لى رأيك فى كيفية التصرف لإنجاز مهمتنا ؟

ـ إقرأوا كتبى وسوف تصلون إلى حل مؤكد " بإذن الله "

****

أبرق رعمسيس بشفرة خاصة إلى أخناتون يبلغه فيها بنص الحوار الذى دار بينه وبين سهدوم، والذى أعتبره حواراً ممتعاً لم يسعد بمثله من قبل طوال حياته .

أتصلت حتشبسوت بأخناتون تستفسر عن صحته وتسأله عن مصير كل من الدكتور يوسف فخر الدين موسى والدكتور على عزيز سهدوم .

أجابها بقوله :

ـ دعيهما ينعمان بأمان الشيخوخة .

– 26 –

أصطحبت حتشبسوت كبير كبراء الثقافة فى طريقهما إلى قصر الضيافة . أكتشفت من خلال تحاورها معه أنه جاهل بتاريخ آبائه وأجداده جهلاً مفرطاً، فضلاً عن جهله التام بتاريخ العالم كله، فقالت له بغيظ شديد :

ـ أنت لا تصلح إلا لاستعمال عضلاتك فى بار .. من الذى عينك فى هذا المنصب الحساس الخطير :

ـ الحقيقة أننى فوجئت بتعييني، ولكن كان ينبغى أن أثبت وجودى .

قالت ساخرة :

ـ ولهذا أنقلبت الأهرامات أمام عينك الطافحتين بالغباء وأنت واقف تتفرج كالأبله .

قال محتجا بضعف واضح :

ـ أننى لا أستحق كل هذه الإهانات .

ـ بل تستحق الإعدام، لكنه ليس من سلطتى للأسف .

تساءل بلهجة تنم عن غباء شديد :

ـ لماذا لا تذهبون بى إلى القصر ؟

ـ لأن تدميرك للثقافة دمر الحياة بأكملها فأنقلبت الأهرامات .

ـ لكنى لم أقاوم رغبتكم فى أستعدالها .

ـ لأنك مع من يقلبونها لا تقاوم، ومع من يعدلونها لا تقاوم . هل قرأت شيئاً للدكتور فخر الدين ؟

ـ لم أقرأ له شيئاً .

قالت حتشبسوت وقد نفد صبرها :

- عندما تقرأ له ستعرف على الفور أنك منافق كبير، شأنك فى ذلك شأن غالبية أحفادنا المعاصرين .كان ينبغى أن تعلم أن الثقافة فكر وفن وعلم وعمل وسلوك، وأنها المفتاح الوحيد لباب التقدم والتحضر وبدون الثقافة فلا أقتصاد ولا سياسة ولا عدالة فى أى المجالين .. وأنت لا تفهم شيئاً مما أقول . أنى أجزم بذلك أيها التعس .

كانا قد دخلا القصر حين وصل بها الأنفعال إلى أقصاه حيث دفعته بغلظة إلى غرفته، ثم أستحالت إلى شبح غير مرئى .

– 27 –

من مخطوطات فرعو أندلسية وقعت فى أيدى الأحفاد :

" أمسك القرد بمفاتيح الوكالة وراح يعبث بمحتوياتها فوقع وأنكسرت عنقفته . جاءه صوت يقول : أرحموا عالماً ضاع بين جهال . حيئذ أقتحم الوكالة فيل ضخم فقلب محتوياتها رأساً على عقب . ثم جاء صوت يقول أنها ليست وكالة بل تكية، فدخل أنسى باب الوكالة أو التكية وقال بفصاحة مقززة : ليس العاقل الذى إذا وقع فى الأمر أحتال له ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه . وإذا بجنية برية شديدة الجمال تظهر متربعة أعلى قمة فى المقلوبات وتقول : بويو واوا باسبا خع أن نيوت، ششنق حرى شفيت . يربعام نمرات سركن .

فى تلك اللحظة أدركت الكلاب أن الزلزال وشيك الوقوع فعلا نباحها يصم الآذن " .

–28 –

قدم مندوب من العالم السفلى حاملاً معه رسالة إلى الفراعنة المنتشرين على أرض مصر تقرر فيها إرسال الفرعون " حور محب " للقيام بدور خطير للمساهمة فى دفع عجلة البحث عن حل لمأساة الأهرام المقلوبة . بعد مضى ثوان من إبلاغ الرسالة ظهر حور محب فى القاهرة تحت شجرة كثيفة الظل فى ساعة الظهيرة الحارقة . جلس زمناً كافياً أستطاع خلاله أن يوائم نفسه مع واقعه الجديد على أرض مصر أستعداداً لبعث " حفيد مصر الأول " الذى مات منذ عدة أعوام .

أستطال زمن جلوسه تحت الشجرة فانبعث ماضيه السحيق من أغواره العميقة، وغمرته نشوة الفخر بقيادته عصر التطهير من بعد حكم أخناتون إذا أصدر القرارات والقوانين الأتيه :

1- محظور على الموظفين المالين والإداريين إضطهاد الفقراء، ومن يعوق السفن التى تحمل الضرائب إلى خزينة الدولة فإنه يعاقب عقاباً صارماً مثل جدع الأنف والنفى إلى مدينة " ثارو " على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

2- معاقبة من يسرق سفناً تحمل ضرائب الدولة وتكون مرسلة إلى الملك أو تحمل أشياء لزوجته أو للمعابد بأن يجرح فى خمسة مواضع من جسده ثم تسترجع منه الأشياء المسروقة.

3-ممنوع أضطهاد رجال الشرطة للشعب، ومن يخالف ذلك يحكم عليه بمائة جلدة .

4-يجرى البحث عن موظفين ذوى سيرة حميدة وأخلاق طيبة ليقوموا بجمع الضرائب، ويعاقب من يتلاعب من موظفى الضرائب أو يظلم الفلاحين .

" وقد وقع أختياره على وزيرين لتنفيذ هذا الأمر فقال لهما : لا تأخذوا رشوة من أحد، وإلا فكيف تستطيعان أن تحكما بالعدل إن كنتما جناة على القانون ؟ "

5-يعفى القضاة من جميع الضرائب إبطالاً للرشوة وحتى لا يكون لديهم عذر فى أتباع الوسائل غير الشريفة .

6-معاقبة من يظلم الفلاحين بأخذ حبوب أو خضروات منهم بغير إذن الملك .

7 ـ تضاعف مرتبات الموظفين الإداريين لكى يبتعدوا عن الرشوة .

8- تمنع القسوة أو زيادة العمل على الأرقاء .

وختم مرسومه بقوله :

" وإذا مد فى أجلى على الأرض لأننى أقوم ببناء عمائر وتماثيل للالهه، فإننى سأجدد ولادتى مثل القمر منضماً إلى الحياة والخلود والسعادة " .

****

ترحم على أيامه الحافلة بالمآثر, العبقة برائحة العظمة، ثم تأهب للقيام بدوره الذى كلف به . أخرج من جيبه بضعة أوراق كتبت فى عصره . تصفحها على مهل ثم أعادها إلى جيبه وتمتم قليلاً أمام قبر " الحفيد الأول " المحاط بحراسة عسكرية دون أن يشعر بوجوده أحد .

لم تمض عدة ثوان حتى أنبعث الحفيد الأول من قبره عملاقاً كما كان يقال عنه فى عصره، بنفس الإشعاع النفاذ المنبعث من عينيه اللامعتين ، وبنفس أبتسامته المصرية التى قيل أنها أسرت قلب شعبه. تصافحا بحرارة شديدة أدت إلى عناق حار . بدا أن كلا منهما يعرف صاحبه تمام المعرفة، أو أن هنامك صلة قربى حميمة تجمع بينهما . قال حور محب باعتزاز شديد :

ـ أهلاً بحفيدى الثائر العملاق

لمعت عينا الحفيد الأول ببريق أخاذ يشع بقوة وتساءل عن سر بعثه بعد رقاد دام أكثر من عشر أعوام. قال حور محب :

ـ لقد كلفت ببعثك للإستنارة برأيك فى أمر خطير .

ـ ولماذا رأيى أنا ؟

ـ لن نكتفى به، إذ كلف زميلى " أمنمحات " يبعث حفيدنا الثانى لنفس السبب ، ترى هل تعرفه ؟

ـ نعم ، لكن أرائى ثورية قد لا تناسب هذا العصر، فضلاً عن أنها لم تناسب عصرى نفسه مما أدى بالبلاد إلى نكبة أودت بى إلى الموت .

ـ لا تحزن يا صغيرى، يكفى أنك كنت صادقاً مع نفسك .

ـ إن بعض أبنائى وأحفادى يلعنونى فى قبرى فيزيدون من آلام ساقى الموجعة .

ـ هذا ثمن غلطتك الكبرى .

قال الحفيد الأول بسخرية اليائس :

ـ أهى غلطة واحدة ؟ .. لقد قيل بعد موتى أن عصرى كان حافلاً بالأخطاء المدمرة .

تداركه حور محب بإشفاق شديد :

ـ لا تحقر من شأن نفسك يا حفيدى، فلقد ، غيرت خريطة العالم .

ـ وما هى تلك الغلطة أيها الجد العظيم ؟

ـ لقد وفرت لشعبك الطعام ولم توفر له الكلام فوقعت النكبة .

ـ أنها مسؤولة أتباعى الذين أوليتهم ثقتى فكمموا أفواه شعبى لتحقيق أطماعهم الحقيرة .

ـ هل كنت تعلم أثناء حكمك ـ الذى دام ثمانية عشر عاماً أنهم يغتصبون زوجات وشقيقات وأمهات المعتقلين وينبشون قبورهم أمام أعينهم ؟

ـ أقسم أن هذه البشاعات حدثت من خلف ظهرى .

ـ لكن التاريخ يحملك التبعة وحدك حتى لو كنت صادقاً .

ـ سامحهم الله وغفر لهم .

ـ بل عليهم اللعنة أحياء وأموات . دعنا نتحدث فى المهم . ما قولك فيما حدث للأهرام

ـ أعترف بأننى شريك فى المسئولية مع حفيدكم الثانى الذى خلفنى فى الحكم .

ـ لقد حدث ما حدث ولا جدوى من نبش الماضى .. ترى ماذا نفعل الأن ؟

ـ قد لا يعجبك رأيى .

ـ قله ولا تعباً بشئ .

ـ لست أعرف سوى الحلول الثورية .

ـ المهم أن تقدم لنا حلاً .

ـ أن يقود الحفيد الثالث ثورة كاسحة يطهر فيها البلاد من كل مخلفات الماضى اللعين

ـ هذا الكلام نظرى ينقصه التحديد .

ـ لست أملك سوى هذا القول، فالواقع المعاصر تعوزنى تفاصيله . الذى أعلمه أن هناك تراكمات عديدة أدت إلى أنقلاب الأهرام ، وثقتى كبيرة أن الحفيد الثالث قادر على إزالتها لو تمسك بالنقاء .

ـ كنت أود التأكد من ذلك بنفسى، لكن التعليمات لم تصلنا من العالم السفلى للأتصال بالحفيد الثالث .

ـ أنا واثق من قوته .

ـ لقد سبق أن منحت ثقتك لوزير الحرب فى عصرك فأضاع منك سيناء .

ـ لم أكن أعرف أنه يتخذ قرارات الحرب هجوماً وأنسحاباً وهو مسطول .

ـ أولاً أنى أشك فى ذلك، ثانياً حتى لو كان يتخذها وهو واع فإن ذلك لم يكن ليغير من واقع الأمر شيئاً لأنه كان يجهل العسكرية الحديثة ، ومع هذا فالمسؤوليه تقع عليك بالدرجة الأولى لأنك لم تكن ماهراً فى المناورات السياسية كحفيدنا الثانى الذى برع فيها ولم يبرع فى شئ سواها .

ـ لقد كان الصدق عندى كلاً لا يتجزأ ولهذا خضت ثلاثة حروب فى عهدى ، منهم واحدة خارج أرضى وللأسف هزمت فيهم جميعاً .

بدأ التأثر الشديد على الحفيد الأول . أكتسى وجهه بمسحه من حزن بالغ ، وحين ربت حور محب على كتفه بحنان أبوى وقال له :

ـ لقد كنت أول حفيد شرعى لنا يحكم البلاد من بعدنا ، ورغم أن أخطاءك قد أودت بحياتك وحياة الآلاف من أحفادنا الشجعان فإننا نعتبر ما حدث قدراً قرره الأله ، أما قدرك فأن يباركك من أستمتعوا بالطعام وأن يلعنك من حرموا من الكلام . ولك الآن أن تعود إلى قبرك .

ـ وداعاً يا جدى العظيم ، ولا تنس وصيتى .. الحفيد الثالث وثورة التطهير .

ـ 29ـ

من مذكرات الحفيد الأول عن الذين وفر لهم الطعام :

" أننى فلاح ومازالت عائلتى تشتغل بالزراعة، وأنى لأذكر كيف كان الفلاحون يشحنون فى اللوريات أيام الإنتخابات، إذ كان ملاك الأرض يرسلونهم إلى مراكز الإقتراع،

والويل للقرية التى كان يجرؤ واحد من أهلها على إعطاء صوته للمرشح المنافس لسيد المنطقة . وإزاء هذا المشهد لم أكن أعتقد مطلقاً أن ما أراه مظهر من مظاهر الديمقراطية "

لكن الحفيد نفسه ألغى التظام بأكمله وأنفرد بالحكم حتى توقف قلبه عن النبض.

-30-

ما أن أختفى حور محب بعد أن أدى دوره ظهر أخناتون وكانت حالته الصحيه على ما يرام . تهامس بقية الفراعنة بإشارات تدل على فهمهم للعبة الذكية التى لعبها أخناتون بادعائه المرض . إلا أنهم أجمعوا على تأييده لموقفه النابه إذ تحاشى به وقوع صدام خطير بينه وبين حور محب الذى أهان آلاله آتون ومحا آثاره من المعابد. وأعاد للاله آمون هيبته القديمة بمجرد توليه مقاليد الحكم .

وبينما كان الفراعنة يتهامسون ويتشاورون إذ برسالة شفرية تصلهم فجأة من حتشبسوت . قالت أن هناك عمالقة بالمئات يهاجمون القصر الكبير بأسلحة غريبة مصنوعة من الدولارات والماركات والإسترلينى والبيزبتات والجنيهات المصرية، ولما تصدت لهم حتشبسوت بشخصها مستفسرة عن سبب الهجوم، طلبوا منها أن تخرج"قبطان" من القصر، لكنها رفضت وما زالت تجادلهم حتى ساعة إرسال البرقية أنتظاراً لوصول نجدة فرعونية عاجلة لإنقاذ الموقف .

بعث رعمسيس بألف جندى من جنوده . لم يكد العمالقة يرونهم حتى فروّا هاربين ــ تاركين قبطاناً بالقصر ــ لكن حتشبسوت نجحت فى الإمساك بواحد منهم .

كان يصرخ كما النساء وهى تحاول تهدئته دون جدوى . إضطرت فى النهاية إلى صفعه بعنف على وجهه فالتزم الصمت . قال لها بتوسل كالأطفال :

ــ لماذا تمسكين بى ؟؟ أننى مجرد صحافى حضرت مع العمالقة بناء على طلبهم .

ــ لماذا طلبوك ؟

ــ لأغطى النبأ صحفياً.

- أى نبأ ؟

ــ نبأ أختطاف قبطان مراد عثمان .

ضحكت حتشبسوت بقوة كما يضحك الرجال . قالت له مداعبة :

ــ سوف أطلق سراحك بشرط واحد ، هو أن تتخيل نجاح العمالقة فى أختطاف قبطان ، ثم تكتب أمامى الآن ما كنت تنوى كتابته فى جريدتك بعد نجاح عملية الإختطاف .

ــ هل جلالتك جادة فيما تقولين ؟

أطلق الصحافى سؤاله كمن وهبت له حياة كادت أن تمنع عنه فأجابته بنبرة صارمة :

ـ لم تحكم مصر أمرأة جادة مثلى .

أمسك بقلمه وراح يكتب بأنهماك وأستغراق كاملين:

" بالرغم من الحملة الظالمة التى شنها بعض الصحافيين على قبطان مراد عثمان وأمثاله من عظماء رجال الأعمال فى بلادنا العامرة ، وبالرغم من محاولة تشويه سمعته والإساءة إلى هيبته ومهابته ، فقد نجحنا فى إخراجه من قصر الضيافة إلى الحياة . أن قبطان مراد عثمان خير مثال للوطنى المعاصر الذى يغدق بملايينه التى لا حصر لها على الفقراء من أبناء الشعب المسكين ، فيبنى لهم المدارس والمستشفيات ويؤسس لهم المصانع والشركات .. وليس من العدل بأى حال أن يكون القصر الكبير مصيره . وليعلم الجميع أن قبطان عثمان ورجاله وكل من هم على شاكلته من العظماء لن يموتوا أبد الدهر إذ تخلدهم أعمالهم الوطنية العظيمة فى خدمة البلاد .... والله أكبر ويحيا الشعب " .

أنتهى الصحافى العملاق من كتابته ثم قال للملكة بخوف التلميذ الخائب :

ــ هذا ما كنت أنوى نشره بعد إخراج قبطان بك من القصر ، وكنت سأتقاضى فى مقابله أجراً كبيراً .

أنفجرت حتشبسوت فى الضحك ثم توقفت فجأة

قالت بحزم :

ـ سوف نضعك معه أيها الصحفى العملاق .

بهت الرجل . أصفر وجهه و أزرق وبان عليه رعب شديد .

ـ وأين وعدك لى يا جلالة الملكة المعظمة ؟

ـ أن التنكر للوعد مع أمثالك هو الوفاء بعينه . ألم تسمع عن قول سيدكم على بن أبى طالب الشهير بأن " الغدر بأهل الغدر وفاء عن الله والوفاء بأهل الغدر غدر عند الله ؟

ــ لكنى لست الصحفى الوحيد الذى يتبع هذا الأسلوب .

ـ أعرف ذلك .. وسنكتفى بأستضافتك فى القصر كممثل لكل من هم على شاكلتك .؟

لم يتمالك العملاق نفسه من البكاء .. تعالت صيحاته كما الأطفال ، لكن حتشبسوت لم تعبأ به . وضعته فى غرفته ثم تلاشت .

– 31 –

يجلس الكاتب المصرى القرفصاء ممسكاً بقلمه وقرطاسه .. لكنه لم يعد يجد كلاماً يكتبه .

– 32–

بعث أمنمحات فى القاهرة فجأة . لم يكن مدعماً بالمعلومات الكافية عن مكان الحفيد الثانى . سأل عن مقبرته فقيل له أنها تقع فى ضاحية من ضواحى القاهرة . أعطى بياناً تفصيلياً عن قصة حياته ووفاته . شعر أمنمحات بتعاطف شديد مع روح هذا الحفيد ، فقد أودت مؤامرة بحياته هو الآخر .

توجه أمنمحات إلى القبر . وقف أمام النصب التذكار خاشياً يسترجع تاريخه بدهشة بالغة . قال أن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، فهو أيضا من أصل نوبى ، وهو الذى أعتلى عرش مصر كأقوى رجل دولة ، ثم تفنن فى تدبير أمور مملكته وأحسن تنظيمها ونشر الأمن والسلام فى ربوعها . تذكر حملته الحربية التأديبية التى شنها ضد الليبيين حين هددوا ملكه . حدث نفس الشئ مع الحفيد الثانى . تذكر أيضاً وصايا الحكيم الفرعونى " أيبو ــ ور " الذى قال :

" لقد أصبح الناس كقطيع من غير راع قد أستبد به الروع . هاك كان يرتدى الملابس الجميلة ثم أصبح يغدو فى أسمال بالية، فى حين أن من لم يكن يستطيع الحصول على ملبس له أصبح يرتدى الكتان الفاخر

.. هناك من لم يكن يجد بالأمس خبزاً أصبح اليوم يمتلك شونة . غير أنه يملأ أهراءه بمتعلقات غيره . لقد أصبحت البلاد خراباً وليس هناك من يهتم بها وليس من يذرف الدمع عليها .. لقد حدث ما لم يحدث من قبل " .

أمتلأ قلب أمنمحات بالحسرة وهو يذكر خلاصة تجربته التى قدمها على مكتوبة لولده سنوسرت بعد نجاته من محاولة أغتياله الأولى .

" كن على حذر من أتباعك . لا تقترب منهم ولكن لا تكن وحيداً . لا تثق فى أخيك ولا تعرف لك صاحباً ولا تقرب إليك شخصاً . أن هذا لا يجدى . أن نمت فدع قلبك يحرسك فليس الأعوان لوقت الشدة . أنى أعطيت الفقير وأطعمت اليتيم وحققت أهداف من لا أمل له ، ولكن ثمن العطف كان خيانة . أن من أكل خبزى أحتقرنى ومن أعنته رمانى حين أشتد ساعده ، ومن كسوتهم بكتانى الرقيق نظروا إلىَّ كما ينظرون إلى خيال ، ومن دهنتهم بعطورى رشوا علىَ الماء " .

****

أمتثل أمنمحات لواقعه الجديد . لقد صدرت إليه التعليمات بامتصاص تجربة الحفيد الثانى لتسخيرها فى خدمة الرسالة الفرعونية المقدسة . أجرى المراسم اللازمة لبعث الحفيد الثانى فظهر أمامه على الفور . تعانقا بحرارة وراحا يبكيان معاً بلا تحفظ . بعد قليل هدأت ثائرتهما ثم غمرتهما السكينة والطمأنينة . قال الحفيد الثانى بمحبة بالغة :

ــ لقد كنت أنتظرك ياجدى الكبير .. أنت بصفة خاصة .

ــ أنى أتفهم مشاعرك وأقدرها أكثر من أى مخلوق آخر .

ــ كلانا راح ضحية الجحود ونكران الجميل .

ـ أعلم ذلك أيها الحفيد العبقرى . لكن لابد أن لكل منا أخطاءه التى أدت إلى نهايته .

ـ دعنا نتصارح بهذه الأخطاء فنحن فى حل من المسؤولية الدنيوية تماماً .

ـ يؤسفنى أننى مطالب بالحديث عن أخطائك فقط .

ـ كنت أظنك ديمقراطياً مثلى .

ـ وهل تعتقد أنك كنت ديمقراطياً حقيقياً ؟

ـ هذا شئ لا يقبل الشك .

ـ بل كنت مجرد محاولة مترددة لم تكتمل .

ـ كيف ؟

ـ كانت ديمقراطيتك لا تمثل إلا وجهة نظرك فحسب ، كما أن الديموقراطية لا تمنح .

ـ لقد عمت شهرتى أرجاء العالم .

ـ لا يهمنى هذا بقدر ما يهمنى رأى أحفادى المعاصرين .

تنحنح الحفيد الثانى وأصدر بعض الآهات والآآت من حنجرته وقال بمرارة :

ـ آه .. هؤلاء الجاحدون الذين يلعنونى اليوم على صفحات الجرائد بعد أن ألّهونى من قبل .

ـ دعنا من الجاحدين .. سأتكلم عن المعتدلين فقط .

سأله الحفيد بصوته الجهورى الرنان :

ـ ماذا يقول عنى هؤلاء القوم ؟

ـ يقولون أنك وقعت فى الخطأ نفسه الذى أرتكبه حفيدنا الأول ولكن بشكل عكسى .

ـ ما معنى هذا؟

ـ معناه أنك وفرت لهم الكلام ولم توفر لهم الطعام .

أشعل الحفيد الثانى غليونه بحركة مصنوعة . تساءل بدهاء بينما عيناه منصبتان على الطباق المشتعل .

ـ كيف تقول أننى وفرت لهم الكلام وجلالتك لم تعترف بديمواقراطيتى منذ قليل ؟

ـ ما زلت مصراً على رأيى ، فأنت لم توفر لهم إلا الكلام الذى كنت تحب أن تسمعه ، ولهذا فأنت مسئول بشكل أو بأخر عن أنقلاب الأهرامات .

ـ معنى هذا أننى فشلت فى توفير الطعام والكلام معاً .

ـ ليس كذلك تماماً ، وإنما شئ قريب من هذا المعنى .

ـ وأنتصارى فى الحرب ، وجهودى من أجل السلام وإستعادتى لأرض سيناء المحتلة؟

بدأ واضحاً أن الفرعون قد أستدرجه فى الحديث ليصل بـه إلـى هذا المقولـة فيقـول لـه مؤنباً:

ـ أنك لم تحقق هذه الأمجاد بمفردك بل بمساندة أحفادنـا الـذين عاصروك ، ومـا كـان يصح أبداً أن تنسب المجد لنفسك وحدك فى مسلسلاتك الدراماتيكية السياسية البارعة .

ـ إذن فأنا غير مشكور فى جميع الأحوال .

ـ بل مشكور على قدر أجتهادك فقط ، ثم لا تنس أن واجبك كفرعون كان يقتضى القيام بتلك الأنجازات ، فأنت لم تتصدق على شعبك بما فعلت .

قال الحفيد الثانى بتأثر شديد :

ـ لكم أنت قاس علىَّ أيها الجد الكبير .

ـ إنى أقسو عليك بقدر أعترافى بقوتك ودهائك الذى حير العالم ، فلو كنت فرعونـاً عادياً ما أوليتك مثل هذا الأهتمام .

ـ شكراً يا جلالة الملك .

ـ والآن قل لى ماذا تفعل فى الكارثة التى حلت بنـا والتـي أكرر أنـك شريك مع حفيدنا الأول فى االمسئولية عن وقوعها ؟

ـ جلالتك تضطرنى للدفاع عن نفسى من جديد.

ـ لن أسمع منك دفاعاً يا صغيرى .. تكلم الآن فى المفيد فقط .

ـ حسن .. رأيى أن مفتاح الحل فى يد نائبى " الحفيد الثالث ".

لاحظ أمنمحات أن الحفيدين يوكلان مهمة تصحيح أخطائهما إلى الحفيد الثالث .

ـ بماذا تنصحه إذن لو أفترضنا ذلك ؟

ـ أن يوفر لشعبه حرية الطعام والكلام معاً .

ـ أنى لأحسدك على ذكائك الشديد وأتعجب فى الوقت ذاته كيف سمحت له أن أن يتخلى عنك فى أيامك الأخيرة فيدهمك الغرور ويستبد بك الكبرياء.

بدا الوجوم على وجه الحفيد الثانى . تقلصت عضلات فكيه فى حركات عصيبة متعاقبة ثم قال:

ـ أرجـو ألا تـذكرنى بنهـايتى أيهـا الفرعـون الجليـل . لقـد جعلـوا مـن جسـدى مصـفاة برشاشاتهم الغادرة .

أعتذر له أمنمحات بأدب فائق عن إثارة وجيعته الأليمة ، ثم عبر عن أمتنانه بلقائه واعاده إلى مقبرته .. وأختفى .

–33–

من أقوال الحفيد الثانى لشعبه :

" أقول لكم بصدق وأمانة .. أننى أفضل أحترام العالم ولو بغير عطف على عطف العالم إذا كان بغير أحترام "

لكن الحفيد جمع فى أواخر أيامه ألافاً من محكوميه ، وكانوا ينتمون إلى كل الملل والفكر والأديان المصرية المختلفة ثم وضعهم فى مبنى كبير ـ يختلف كثيراً عن قصر الضيافة الفرعونى ـ وقال عن أحدهم وهو فى آخر ثورات غضبه .

ـ لقد ألقيت به فى السجن كالكلب !

–34–

تحت ظل أبى الهول عقد الأجتماع المتفق عليه حول مائدة مستديرة غير مرئية . كان الأجتماع بلا رئيس . حضر الأجتماع خوفو وخفرع ومنقرع وأخناتون ورعمسيس وحور محب وأمنمحات . تنبه الجمع إلى أن الملكة حتشبسوت هى الوحيدة التى تخلفت عن الحضور دونما سبب معلوم . قرروا الأتصال بها فى كل مكان بعد أستعراض سريع لجدول الأعمال . أتفقوا بعد المداولة على إقرار خطين رئيسيين للعمل فى المرحلة القادمة .

الأول هو القيام بزيارة جماعية للقصر الكبير ومقابلة الضيوف للاستزادة من معرفة أسباب صمتهم وعدم أستنكارهم لأنقلاب الأهرامات .

التانى هو القيام بجولة أخرى يلتقون فيها مباشرة بأحفادهم من جميع الفئات الممثلة للشعب ، بحيث يساهم هذا الالتحام المباشر بالشعب فى إنجاز الرسالة الفرعونية المقدسة ، وخلال إجراء الاتصالات المختلفة للبحث عن حتشبسوت تساءل رعمسيس قائلاً :

ـ لماذا لا نبعث بفرعون إلى الحفيد الثالث ؟

قال أخناتون :

ـ إنها فكرة منطقية قد تكون ذات نفع كبير

قال حور محب :

ـ لم تصلنا تعليمات سفلية بلقائه حتى الآن

تساءل أمنمحات :

ـ لست أدرى ما السبب فى ذلك !

فقال منقرع :

ـ لعلهم يعلمون أنه حديث عهد بالحكم ولذا فهم يتركون له فسحة من الزمان يكون فيها تحت الأختيار تتضح خلالها إمكانياته ونواياه

أكد حور محب على هذا القول بقوله :

ـ يبدو أن هذا صحيح ، فلقد سمعت إشاعات سفلية قبل بعثى الأخير تقول بأنه موضوع بالفعل تحت الأختبار وإن كان بعض الفراعين يتنبأ له بالنجاح مقدماً .

سارع منقرع محتداً:

ـ إن تنبوءات العالم السفلى لا تقاس بمقاييسنا هنا على سطح الأرض ،وما علينا إلا أن نقيم أستنتاجاتنا على أساس من الواقع

ـ لن يتأتى لنا هذا إلا بعد تنفيذ البند الثانى من جدول الأعمال

ـ إذن فنحن متفقون

أستمرت الأتصالات العلوية والسفلية والوسطية تجرى للبحث عن حتشبسوت دون جدوي . أنتاب القلق كل الفراعنة المبعوثين ، أما فراعنة التوابيت فقد أضافوا السر إلى كنوز أسرارهم بينما عجز جن البر والبحر عن الإهتداء أليه .

دبت حركة محمومة فى البحث عنها ببث آلاف الجنود فى كل مكان بمصر دون أن يعثروا عليها . ظل الأجتماع منعقداً لبذل المزيد من الجهد للعثور على الملكة المختفية .

****

بعد لأى طويل بات الفراعنة يعتقدون أن مليكتهم قد أختطفت بفعل القوة المضادة للأستعدال ، وأنها قد أخفيت كرهينة فى مكان مجهول . نشب خلاف كبير بين المجتمعين حول ما إذا كان الأهم أن يجدوا الملكة المخطوفة أم أن يمضوا فى تنفيذ بندي الإتفاق لتحقيق الهدف الأساسى المنشود . حاول رعمسيس حسم الخلاف بقوله :

ـ أن الضيوف لن يضيفوا جديداً ، فقد سبق أن أصدرنا عليهم حكمنا ، أما الذى ينبغى أن نفعله فهو أن نعذب أجسادهم حتى يعترفوا لنا بمكان إخفاء الملكة .

صاح أخناتون :

ـ أنى أعترض بشدة على أتباع هذه الوسيلة غير المتحضرة لا نتزاع أعتراف قد لا يكون إلا وهماً خادعاً ، فمن يدرينا بالمختطفين الحقيقين للملكة ؟

قال رعمسيس بهدوء :

ـ لقد قلت كلمتى ، وأنتم أحرار فيما تتفقون عليه .

حدثت هزة أرضية مفاجئة أندهش لها الفراعنة وتسمرت أعينهم على أبى الهول الذي نطق بصوت غائر فى العمق وقال :

ـ لست أرى تعارضاً بين تنفيذ البند الأول من جدول الأعمال وبين البحث عن الملكة من خلال أستجوابكم للضيوف ، وحتى لا يطول الخلاف بينكم فإنى أقترح إجراء تصويت عاجل حول أقتراحى هذا .

أنتهى التصويت إلى الأخذ برأى أبى الهول، فتوجه الفراعنة السبعة إلى القصر الكبير فى موكب حافل بمظاهر الجلال والعظمة ، وإن كان غير مرئى للشعب على طول الطريق .

****

تعالت صيحات الأحتجاج والأستنكار من كافة ضيوف القصر على طول زمن الأستضافة عدا حليم حتحوت . كان واضحاً أن الضيوف يكنون له أحتراماً خاصاً حتى أنهم فوضوا إليه الحديث نيابة عنهم ، لكن هذا الأحترام كان يغلف شعوراً خفياً تجاهه بالغيرة والحقد والكراهية وصل عند البعض منهم إلى الرغبة فى قتله . أما الفراعنة فقد أنابوا حور محب للتحدث مع حليم حتحوت، وجلسوا فى صمت الموتى . قال حليم بهدوء شديد :

ـ نود أن نعرف ما هو المطلوب منا على وجه التحديد

ـ أن تدلنا أولاً عن المكان الذى أخفيتم فيه الملكة .

ـ إذن فنحن متهمون بخطفها

ـ نعم !

قال حليم بلهجة تفوح برائحة التحدى :

ـ وأنت أيضاً متهم بخطف الملكة " عنخسنباتن" أرملة توت عنخ آمون

بوغت حور محب فكاد يفقد صوابه .

ـ ماذا تقول أيها الرجل المعتوه ؟ .. هل جننت حتى تهرف بما لا تعرف ؟

ـ إننى للأسف أعرف ولست آهرف .

بدا الأرتباك على وجه حور محب . تكاثفت سحب الماضى الغابر أمام عينيه مؤكدة أن الوصول إلى مقعد كبير الفراعنة أمر لا بد أن يقترن بسيل من الدماء .

ـ أريد إجابة محددة .. أين حتشبسوت ؟

ـ لسنا نعرف

ـ هل تقسم على ذلك ؟

ـ نعم ، لكن بمن أقسم ؟

ـ بعظمة الفرعون وجلالته .

ـ أى فرعون ؟ .. الحالى أم الذي رحل ؟

ـ الحالى طبعاً

ـ ولماذ لا أقسم بجلالة الفرعون الذى رحل ؟

ـ لأنه رحل

أخرج حليم حتحوت من جيبة ثعباناً وعلقه حول رقبته ونظر إلى أخناتون نظرة لوم قاسية . رفع الثعبان رأسه محملقاً فى وجه حور محب . قال حليم :

ـ أرأيتكم أنكم مسؤلون مثلنا تماماً عما صرنا إليه ؟

ـ ماذا تقصد أيها العجوز المتخابث ؟

زحف الثعبان على جسد حليم حتى أستقر على الأرض محملقاً فى وجه حور محب الذى لم يتلفت إليه على الإطلاق .

قال حليم بعد أن أختفى الثعبان فجأة :

ـ لقد علمتمونا كيف نمحو أثر الفرعون الذى يرحل تمجيداً ونفاقاً لأى فرعون جديد

ـ هذا محض افتراء

ـ بل أنه حقيقة . والدليل على ذلك أسوقه من واقع تاريخ جلالتك .. ألم تمح أسم توت عنخ آمون من النقوش التى كتبت فى عهده ؟ .. ألم تفقأ عينيه على جدران المعابد وتقطع رؤوس تماثيله حتى يبعث بلا رقبة ؟ . ألم يفعل غيرك من الفراعنة مثلما فعلت بآثار من سبقوهم كيداً وأنتقاماً؟.

ـ أنى منتظر سماع قسمك ، وكفاك مجادلة

ـ أقسم بالله العظيم أننا لا نعرف شيئاً عن جلالة الملكة المختفية

ـ أذن فأين ذهبت ؟

ـ لعلها تعيش الآن تجربة عاطفية مع حفيد من أحفادها ، ولا تنس يا مولانا أنها أمرأة جميلة.

ـ إن التحاور معك مهمة عسيرة للغاية

- أفهم من هذا أن الأستجواب قد أنتهى

ـ لم تتعجل النهاية ؟

ـ لأننى لم أتوصل حتى الآن إلى نهاية لروايتى التى أكتبها ، فمجيؤكم عطلنى .

ـ ألن تضيفوا لنا معلومات جديدة حول مسألة الأنقلاب ؟

ـ بصفتى نائباً للمجموعة فإنى مازلت مصراً على أن الأهرامات ليست مقلوبة ، وليس عندى جديد أضيفه

ـ لقد كان هذا رأيك قبل أستضافتك بالقصر

ـ وما زال هو رأيى بعد الأستضافة أيضاً

ـ لكنه لا يمثل رأى بقيه الضيوف

ـ لقد فوضونى أمامك للحديث نيابة عنهم ، وأنا واثق أن الأهرام فى نظرهم غير مقلوبة كما سبق أن أوضحت لزميلك أخناتون ، فضلاً عن أنهم ليسوا من أصحاب الرأى على الإطلاق.

ـ شكراً

فوجى حور محب بالثعبان يخرج من جيبه فأمسك به وألقاه بعنف على الأرض وأنصرف غاضباً.

****

أجتمع الفراعنة وحدهم باحدى غرف القصر الكبير وراحو يوجهون الأنتقادات إلى أسلوب حور محب فى تحاوره مع حليم حتحوت الذى تفوق عليه بمنطقه الواضح دون أن يضيف جديداً سواء لما يتعلق بمسألة الإنقلاب أو بمسألة اختفاء الملكة . وقع الخلاف بينهم من جديد حول كيفية التصرف فى مواجهة المأزق وتساءل أخناتون ساخراً:

ـ أنى أتعجب كيف نثق بقدرتنا على إنجاز عمل خطير كاستعدال الأهرامات بينما نحن عاجزون عن معرفة مصير مليكتنا المختفية.

خلع رعمسيس تاجه ثم أعاد وضعه على رأسه بهدوء وقال أنه وجد الحل . غادر الأجتماع متجهاً إلى سيناء وبقى الفراعنة فى أنتظاره .

ـ 35 ـ

هطلت سماء مصر سيلاً من الأمطار . كان الماء ساخناً لدرجة الغليان بحيث غلفته الأبخرة الحارة التى كانت تتصاعد منه . لكن الماء كان يتحول إلى قطع من الجليد بمجرد ملامسته الأرض . ومن الأبخرة والجليد والضباب والأمطار أكتسى الوادى بغلاف سحرى عجيب أهاج فى الكون ذكرى لحظات الخلق الأولى . وقال قائل انها الخلية الأولى فقال آخر بل انه آدم وحواء . وقد كان من العجيب أن يثمر تعانق الأنصاف السفلية للمخلوقات عن تناثر ملايين من أبناء وأحفاد لا حصر لهم ولا لزوم . وكان من الأعجب أن يكتب على هؤلاء المتناثرين أن يمارسوا الحياة استعداداً للموت فلا أدرك أحد منهم سبب حياته ولا أدرك آخر

سبب موته لكن الجميع كانوا على يقين من أنه فى سراديب الأهرام الثلاثة تنام أسرار الموت جنباً إلى جنب مع أسرار الحياة .

وحين تنقلب الأهرامات ، فإن الأسرار تصبح فى خطر .

– 36–

قال الأمريكى بغرور فج :

ـ ها قد عدت إلىً وسوف تعود مرة ثانية وثالثة لأنك ستظل دائماً بحاجة إلىً .

لم يعلق رعمسيس وإنما اكتفى بالنظر فى غضب مقرون بالدهشة إلى الملابس المدنية الأنيقة التى يرتديها الجندى الأمريكى حارس السلام المزعوم . أبتلع رعمسيس غضبه فى صمت وحين وجد المخرج قال :

ـ لقد سبق أن عجزتم عن الوفاء بحاجتنا منذ التجربة الأولى لاستعدال الأهرام

ـ إذا كان الأمر كذلك فلماذا عدت ؟

ـ لأن حضارتى قائمة على الصبر .

ـ أود أن أذكرك بأننا غير مسئولين عن فشلنا فى تلك التجربة

ـ إذن فلماذا أعدتم لنا أموالنا ؟

ـ لقد أعدناها إليكم كمعونة لأنكم مازلتم فقراء بالرغم من تاريخكم الطويل .

شعر رعمسيس بغصة فى حلقه وطعنة فى قلبة . جال بخاطره أن يفتك بالأمريكى بضربة من يده الفولاذية تحيله فى التو واللحظة إلى أثر بعد عين ، لكنه تمالك نفسه وقال له

ـ قلبى يحدثنى بأنكم سبب بلائنا

ـ دعك من حديث القلب لأنى لست أفهمه وقل لى ماذا تريد

ـ أريد جهازاً من أجهزتكم الحديثة للكشف عن مكان ملكتنا المختفية

ـ للأسف هذا غير ممكن

ـ لماذا ؟

ـ للسبب نفسه الذى من أجله فشلت تجربتنا الأولى معكم

ـ لم لا تدلنى عليه ؟

ـ ألم تسمع من قبل عن لعنة الفراعنة ؟

ـ لعنتنا تقتصر على من ينتهك قدسية مقابرنا فحسب .

ـ لقد مات الخبير الأمريكى الذي أشرف على محاولة أستعدال الأهرامات بمجرد عودته إلى وطنه . أصيب بشلل هستيرى مخيف. كان يردد أسماء ملوككم خوفو وخفرع ومنقرع أثناء هذيانه المستمر .

ـ أنك تنكر حديث القلب ثم تعود فتتحدث بلغته .. من قال انه مات بلعنتنا ؟ .. لم لا تقول " وافاه الأجل " ؟

ـ لا جدوى من مثل هذه المجادلة . فلنتكلم فى المهم

ـ حسن .. نحن على أستعداد لشراء الجهاز وما عليكم إلا أن تدربونا على أستخدامه بمعرفتنا حتى لا يتعرض أحدكم للعنتنا المزعومة

ـ حتى لو فعلنا هذا فقد يموت المدرب

ـ نحن نضمن لكم حياته ، فالموت ليس يعنى نهاية الحياة

أرتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى الأمريكى ..

قال بلهجة تنم عن نفاذ الصبر :

ـ آسف . طلبكم مرفوض .

ـ ولم العجلة . لماذا لا تعرض طلبنا على بنى قومك فربما يقررون غير ما قررت ؟

ـ لقد سبق أن فوضونى كعسكرى قوى ثرى فى التعامل مع العالم .

يئس رعمسيس من محاورته . عاوده خاطر الشر من جديد . لكنه فضل أن يختفى من أمامة للحيلولة دون قتله بلا تفويض من زملائه الفراعنة .

ما أن أختفى رعمسيس حتى أحضر الأمريكى جهازاً صغيراً ضغط عليه بأصابعه على عدة أزرار صغيرة فتحركت بعض الأشياء المتعلقة بالجهاز وظهرت صورة حتشبسوت على شاشة بيضاء فى غرفة مغلقة ومعها رجل لا يدرى بوجودها .

أستطاع الأمريكى بعد إجراء حسابات رقمية بسيطة أن يهتدى إلى مكان أختفاء الملكة. تمنى أن يحضر رعمسيس مرة أخرى ليدله على هذا الموقع تكفيرا عن شعوره بالذنب لسوء معاملته له فى لقائهما الأخير .

****

عاد رعمسيس إلى زملائه معلناً فشله . أقام الفراعنة حفل عزاء أبنوا فيه حتشبسوت بعد أن خلعوا عليها لقب الشهيدة الأولى للاستعدال . رفض الشيخ المقرئ تلاوة القرآن قبل أن يتقاضى أجراً قدره ألف جنيه مصرى .

كان اليأس قد تمكن منهم جميعاً بعد أن أعيتهم الحيل فى العثور عليها . قالوا أن كلاً منهم قد أصبح معرضاً لعملية خطف مشابهة باختفاء جسدى يشابه الموت تماماً رغم أستحالة أن يموت المرء مرتين . وأمام تقديسهم لمسئوليتهم فإنهم رفعوا شعاراً يلتزمون به حتى النهاية : " الأستعدال أو الأستشهاد " .

****

بدأ الفراعنة السبعة مرحلة عمل جديدة ، ولتوحيد كلمتهم وتنظيم عملهم قرروا أن ينتخبوا فيما بينهم رئيساً رمزياً فاختاروا رعمسيس الثانى . بث الرئيس فيهم روح القوة والأمل لمعاودة نشاطهم من جديد بهمة وحماس . أتخذوا قراراً بتوجيه الشكر إلى خوفو وخفرع ومنقرع لاكتشافهم مسئولية كبير كبراء الثقافة عن إفساد الذوق الوجدانى المصرى، ثم أتفقوا على أن يعاقب هذا الرجل عقاباً صارماً أثناء أستضافته بالقصر دون بقية زملائه الآخرين .

أحضروا له مئات الكتب التى تحكى عن تاريخ مصر منذ نزول الأديان السماوية حتى نهاية 1981 ، على أن يقرأ منها كل يوم كتاباً يمتحن فيه فى اليوم التالى وإلا حرم من الطعام فى ذلك اليوم ، كما وزعوا نسخاً أخرى من هذه الكتب على بقيه الضيوف لقراءتها بصفة غير إلزامية .

بعد أيام قلائل ألقى الضيوف بكتبهم جميعاً بلا أكثرات إلى حليم حتحوت . حدد لهم حليم ساعات محددة من اليوم يلخص لهم فيها مضامين هذه الكتب . كان يؤدى هذه المهمة بسعادة كبيرة ورجاء قليل . أما كبير كبراء الثقافة فكان لا يقرأ الا حين يجوع حتى يضمن لنفسه البقاء على قيد الحياة .

قرر الفراعنة أن يستميتوا فى العمل أستعداداً للمرحلة الأخيرة بحيت إن نجحوا فى تحقيق رسالتهم كان بها ، وإن لم يقدر لهم النجاح فحسبهم شرف المحاولة المخلصة ، وليعودوا بعد ذلك إلى نومتهم الأبدية بأعين قريرة وضمائر مستريحة ، ويصبوا لعناتهم على أحفادهم الفاشلين أو ليدعوا لهم بالتوفيق من عند الأله.

***

أنتشر الفراعنة السبعة فى أرض مصر تنفيذا للبند الثانى من قرارتهم الأخيرة . خولت السلطات الكاملة لكل فرعون أن يلتقى بأى مواطن فارق الحياة خلال ثلاثين عاماً قبل منتصف عام 1982 وأن يسأله المشورة فى كيفية أستعدال الأهرامات بعد مناقشته فى أسباب أنقلابها

– 37–

فى القاهرة التقى حور محب بفانوس أفتدى الغلبان الذى فارق الحياة فى نهاية 1956 على أثر سكتة قلبية مفاجئة . داهمته السكتة لحظة تلقيه نبأ مقتل أبنه فى الحرب خلال عمليات انسحاب الجيش المصرى من سيناء.

لعن فانوس أفندى صنف " الفرنجة " في كل مكان على أرض الله لأنهم " تضامنوا مع اليهود فى الهجوم الثلاثى على مصر فتسببوا فى قتل إبنه " . قال له حور محب :

ـ لكن الأمريكان ـ وهم من الفرنجة ـ أنقذوكم من الهزيمة

ـ لم يكن ذلك لسواد أعيننا

ـ فماذا تقول عن الروس الذين هددوا المعتدين بضرب عواصمهم بالصواريخ ، وهم أيضاً من الفرنجة ؟

ـ لابد أنهم كانوا أصحاب مصلحة مماثلة يتنافسون عليها مع الأمريكان.

ابتسم حور محب وقال لفانوس أفندى بتعاطف ماكر :

ـ يبدو أنك كنت مهتماً بالشئون السياسية .

ـ هذا صحيح .

ـ وهو يدل على أستقرار مجالات رزقك .

ـ كان راتبى الشهرى يكفى لسد نفقات الأسرة .

ـ أظنه كان كبيراً.

ـ عشرون جنيهاً.

ـ كم كان سعر البيضة ؟

ـ خمسة مليمات

قدم له حور محب سيجارة مصرية مرسوم عليها صورة الملكة كليوباترا . أشعلها له ثم سأله :

ـ هل سمعت بانقلاب الأهرامات ؟

ـ أنه موضوع حديثنا الوحيد أثناء سهراتنا الليلية فى العالم السفلى .

ـ ما السبب الذى تعتقد أنه أدى إلى وقوع هذا الأنقلاب ؟

قال فانوس أفندى الغلبان بلا تردد :

ـ أرتفاع سعر البيضة إلى عشرين ضعفاً .

ـ أتعتقد أنه لو عاد سعر البيضة إلى خمسة مليمات ستعتدل الأهرامات ؟

ـ لا شك فى هذا .

ـ لكن تحقيق هذه الأمنية يحتاج إلى مضاعفة الإنتاج القومى عشرات المرات .

ـ ليس هذا من شأنى . كل ما كان علىَّ من واجب أثناء حياتى هو تأدية عملى بإخلاص ، وهذا ما كنت أفعله .

سأله حور محب باهتمام بالغ :

ـ ترى لماذا لا يعمل الموظفون الأحفاد بنفس إخلاصك ؟

تـردد فـانوس أفنـدى طـويلاً قبـل الإجابـة . يريـد أن يقـول للفرعـون أن المـوظفين مضربون عن العمل رغم حضورهم اليومى إلى مقر أعمالهم وتقاضيهم رواتبهم الشهرية وأن أبناء الطبقة المتوسطة من المتعلمين أصبحوا نفاية المجتمع ، يعيشون دون مستوى الكفاف .. هكذا سمع من زملائه الجدد بالعالم السفلى . وبعد طول تدبر وحسن أنتقاء للعبارة أجاب فانوس :

ـ تعبير سلبى عن رفض الظلم ، وهو التعبير الوحيد الذى يتقنه الموظفون .

ـ ما معنى الظلم ؟

الظلم عندي أن يثرى الكبار بصنوفهم كافة ، المستغلون منهم والطفيليون الجهلاء ، وأن يثرى الصغار من الحرفيين بحيث تكاد تقترب أجورهم اليومية من أجورنا الشهرية نحن الموظفين التعساء من جامعيين وغير جامعيين .. ونبقى نحن لنتفرج على الذين هم فوق ونتحسر وعلى الذين هم تحت ونتحسر . ما أصعب أسئلتك أيها الفرعون ، لكنى سوف أعرف كيف أهرب منها .

ـ لست أعرف معناه المجرد على وجه الدقة ، فهذا من أختصاص الفلاسفة .

نفذ الفرعون بشفافيته المتحررة من الجسد إلى قلب فانوس فسألة معاتباً :

ـ وهل يستكثرون النعمة على غيرهم ؟

تحرر فانوس أفندى فجأة من تحفظه قائلاً بحماس :

ـ أستغفر الله صاحب الرزق والنعمة ، ولكن لم لا يعم عليهم الخير أيضاً كما عمّ من فوقهم ومن تحتهم ؟

ـ وما لم يتحقق هذا ؟

قال فانوس بحسم وغضب :

ـ فليغرق الطوفان الجميع .

هزَّ محب رأسه فى أسى وهو يقول :

ـ لهذا فهم يعطلون التليفونات ويقطعون النور والمياه ولا ينجزون أعمال المواطنين إلا بالرشوة و ....

قاطعه فانوس بنفس الحسم والغضب :

ـ لا تجهد نفسك بذكر المزيد من مظاهر الإضراب غير المرئى ، فكله صحيح .

بصوت ملؤه الألم والمرارة قال حور محب :

ـ إنها جريمة بشعة فى حق الأرض التى يعيشون عليها .

ـ لا تلمهم يا سيدى فربما فعلت ــ أنا ـ مثلهم لو عشت عصرهم .

ـ ولم لا تبحث عن عمل آخر بدلاً من المشاركة فى الجريمة ؟

ـ يبدو أن جلالتك نسيت أننى مصرى .

ـ كلا .. لم أنس إطلاقاً !

ـ فكيف لا تعرف أن الموظف المصرى يقدس كرسى الحكومة ويتشبث بتلابيبه ـ رغم كراهيته له ـ حتى يحال إلى التقاعد فيظل يبكيه حتى الموت ؟

ــ لعلك لم تسمع عن شركات الاستثمار الأجنبية التى تغرى الشباب الآن بالآف الدولارات .

ـ سمعت ، لكنى لم أفهم شيئاً محدداً عن مسألة الأنفتاح التى أدت إلى ذلك .

ـ هل أنت راض عن العصر الذى عشته ؟

ـ كلا .. أنا غير راض عنه .

ـ وهل أنت راض عن العصر الذى تلاه ؟

ـ أعتقد أنه لم يكن أفضل منه بكثير .

ـ فماذا عن العصر الحاضر الذى تسمع أخباره فى عالمك السفلى ؟

ـ أشك فى أنه سيكون أفضل مما مضى من عصور .

ـ هل لديك أفكار أخرى فيما يتعلق بمسألة الأستعدال ؟

ـ لقد قلت كل ماعندى .

ـ بالإنابة عن فراعنة مصر أرجو أن تقبل عزائى فى أبنك الشهيد وإلى اللقاء مرة أخرى .

****

تساءل حور محب :

" لماذا كتب الحزن على أرضنا بخط عربى عريض ؟" .

– 38 –

التقى خوفو بعامل لقى حتفه بين تروس آلته عام 1967 . كانت الأنباء قد تضاربت حول سبب مصرعه . قال البعض أن الماكينة عتيقة من مخلفات القرن الماضى و كان ينبغى على كبير كبراء الصناعة فى ذلك الوقت أن يأمر بتخريدها وشراء آله جديدة ، لكنه تذرع بنقص الإمكانات المادية وندرة العملة الصعبة . قال البعض الآخر أن مهندس الصيانة هو المسئول عما حدث لأنه أهمل فى صيانة الآلة بسبب تخفيض بدل التفرغ الذى يتقاضاه بنسبة الربع بعد وقوع ما أسموه بالنكسة . قال آخرون أن العامل كان ثائراً فى صباح ذلك اليوم بسبب التبرع الذى فرض عليه إجبارياً بخصم نصف يوم من راتبه لصالح الجيش المهزوم ، وذلك لإحساسه بأنه غير مسئول عن الهزيمة .. هذا وقد أرجع أحد أصدقائه المقربين سبب ثورته إلى نزاع كان قد دب بينه وبين مديرة الإدارة الفنية التابع لها حين عاملته باستهتار وهى ممسكة بإبرة التريكو بين يديها ، حيث تطور النزاع إلى سبها وسب نساء مصر العاملات بلا أستثناء ، فوقعت عليه الجزاء بخصم يومين من راتبه . أبتسم خوفو وهو يسأله

ـ يبدو أنك تكن عداوة شديدة للمرأة ؟

ـ أبتداء من أمى نفسها .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها أنجبتنى .

ـ لكن المرأة مخلوق جميل .

ـ ومدمرة فى الوقت ذاته .

ضحك خوفو ضحكة استنكار واثقة ، فواصل العامل حديثه قائلاً :

ـ ألم تقرأ كتاب " المرأة التى حكمت مصر " عام النكسة ؟

ـ لم أقرأه للأسف .

ـ إذن فعد إلى تاريخ قادتنا العسكريين فى ذلك الوقت وستعلم أننى محق فى مشاعرى

تذكر خوفو الملكة المختفية فقال بأسى شديد :

ـ لكن حتشبسوت حكمت مصر حكماً عادلاً مزدهراً.

ـ لم أعرف عنها شيئاً عنها لأنشغالى بالعمل الإضافى حتى أملأ بطون أطفالى .

ـ لماذا لم تفكر فى ترك القطاع العام والعمل بإحدى الشركات أو المصانع الخاصة ؟

ـ لأننى أفضل الفقر على أن يستغلنى آدمى مثلى .

ـ هل تعلم أن العامل الحرفى أصبح الآن أوفر كسباً من الموظف ؟

ـــ أنـى سـعيد للغايـة بهـذا الانقـلاب ، وشـامت بـالموظفين المجففـين الـذين يشـتدقون بشهاداتهم العلمية وهم أجهل منا بشئون الحياة .

ـ لكن منهم المفكرين والعلمـاء والفنـانين والأدبـاء ، وهؤلاء جميعاً هم وقود حركتنـا الحضارية .

ـ لست أصدق هذا الكلام ، فلا حضارة فى ظل إفلاس اقتصادى .

ـ كيف توصلت إلى هذه الفكرة الرائعة ؟

ـ قالها الدكتور يوسف فخر الدين موسى فى أحد مؤلفاته

ـ مادمت عاملاً مثقفاً ، فما رأيك فى مسألة انقلاب الأهرامات ؟

انفجر العامل فى نوبة متصلة من الضحك ، ولما أستفسر منـه خوفو عن سر ضحكه الشديد أجابه قائلا:

ـ لماذا لا تأخذون رأى ضباط الجيش المنسحب ؟

ـ أنا أسألك أنت الرأى .

ـ وهل ستأخذ به ؟

ـ ولم لا ؟

ـ أنى أشك فى ذلك منذ مولدى وحتى مماتى .

ـ هذه مسألة أخرى .. ما رأيك بصراحة فيما حدث ؟

ـ ما حدث كان لابد أن يحدث .

ـ لماذا ؟

ـ تلك نتيجة طبيعية لتراكم أخطاء الماضى .

ـ وما السبيل إلى التصحيح من وجهة نظرك ؟

ـ أن يحكم البلاد فرعون ذو موقف واضح وهدف محدد يخدم قضية شعبه .

ـ مزيداً من التفسير .. أو التحديد .

ـ ليكن هدف الفرعون مثلاً " إنتشال البلاد من الفقر خلال فترة زمنيـة معينـة " وهذا يكفيه مجداً لو تحقق .

ـ وكيف يتم ذلك ؟

أجاب العامل ساخراً :

ـ أسأل وقود حركتنا الحضارية فهم أولى بأجابتك .

فؤجئ خوفو بالعامل يتركه ويمشى إلى الخلف متراجعاً فى ثبات شديد . بعد عدة خطوات تحول المشى إلى هرولة ، ثم إلى عدو سريع . توقف على بعد محدد كما لو كان يقصده منذ بداية تراجعه ، ثم فى قفزة واحدة مفاجئة عاد إلى موقعه الأول أمام خوفو الذى سأله بدهشة :

ـ ما معنى هذا الذى فعلت ؟

أجابه العامل بلهجة توحى بالعناد :

ـ أنى أترك لعبقريتك أستنباط هذا المعنى .

لاحظ خوفو أن العامل ألتزم الصمت بعد ذلك ، رافضا مبادلته الحديث فأعاده إلى نومته الكبرى وأنصرف شارداً.

****

هامت فى خياله أشباح آلاف العمال المصريين الذين حملوا أحجار هرمه عشرين عاما بلا كلل .. يغنون بسعادة ويتألمون بحب ، حتى أنجزوا معجزة البشرية .

تساقطت الدموع من عينيه ألماً وحزناً على أحفاده حين علم أنهم أصبحوا يستوردون طعامهم من خارج مصر .

جففت الشمس دموعه فأختفى .

ـ 39 ـ

التقى أخناتون بأديب شاب أستشهد فى حرب أكتوبر 1973 فوجئ بأنه عاجز عن الكلام . تبادل معه التفاهم بالأشارة حيث أتفقا على أن يكتب له الأديب الأبكم ما يريد قوله ردا على السؤال الفرعونى التقليدى حول مسألة الأنقلاب . قدم له ورقة وقلماً وراح يتابع كتابته أولاً بأول .

*** * * ***

" لن أكتب إلا ما أشعر أنه يعبر عنى بصدق"

ـ وهذاما أريده تماماً .

" لن يهمنى أن تعتبره خطبة حماسية او أنفعالات شبابية هوجاء "

ـ موافق .

" أيها الفرعون الكبير، لقد ثار عليك المصريون لاعتقادك بوحدانية الاله أتون والغائك الثورى الخلاق لإلههم القديم آمون . أتهموك بالتنكر لدينهم وأعتناقك عقيدة التوحيد فحدث بينك وبينهم ما حدث . يحدث الآن يا سيدى شئ مشابه تماماً، فالدنيا تغيرت والعالم يعدو بسرعة جنونية نحو آفاق جديدة من التقدم والأبتكار والأبداع . العالم يتجدد كل ثانية . أتدرى لماذا أنقلبت أهرامنا ؟ .. لأنهم حذفوا دور الشباب من حركة المجتمع وقنعوا باستيراد اللحوم المجمدة من نفايات أوربا"

توقف الشاب عن الكتابة ونظر إلى الفرعون مستفسراً . قال أخناتون :

ـ عظيم يا حفيدى .. أستمر .

" نحن الكتاب الشبان الذين نمثل نبض الشباب وفكره وأمله، ليس لنا ذكر فى هذا المجتمع . أنتاجنا لا ينشر . الكتاب الكبار المعدودون على أصابع اليد الواحدة ما زالوا مسيطرين على صفحات الجرائد والمجلات . يكررون أنفسهم ى اليوم مائة مرة . أفكارهم يبست وتعفنت وتحللت، وما زالوا يجترونها أمامنا بلا حياء . اصبح الناس يسخرون من أى شاب يتجه إلى الأدب فيقولون عنه بأشفاق مهين: " لقد أدركته حرف الأدب " أو لعلها لعنة الأدب . أصبح قبطان مراد عثمان مثلا أعلى . مكتوب على الاديب منا أن يعيش ويموت يائسا بائسا بينما ينعم الجهلاء واللصوص والمرتشون بالثراء الواسع ، ينفقون أموالهم على النساء والحشيش وسهرات ملوخية وسمارة .

نحن نكتب لشعب معظمه لا يعرف القراءة والكتابة . كثيرون منا لجأوا إلى نشر إبداعهم فى المجلات العربية التى تسبنا ولكن تدفع لنا مكافآت مجزية تعيننا على مطالب الحياة اليومية القاسية "

ظهرت علامات الثأثر الشديد على وجه أخناتون . أشعل سيجارة وأخذ يراقب معالم وجه الأديب الابكم والتى كانت تنطق بالغضب والثورة.

" أنقلبت الأهرام بفعل أحفادكم المعاصرين لأنهم تجاهلونا وأنكروا حقنا فى الوجود . نحن الذين نبشر بعالم جديد مختلف تماماً عن عالمهم المتعفن الذى ذبحوا فيه أشقاءنا فى حروب لا معنى لها، وأمتهنوا فيه كرامة آبائنا بأن أبعدوهم عن المساهمة فى صنع الحياة الحرة، وأصابوهم بالجبن والنفاق .

كتبنا كثيراً حتى لا تنقلب الاهرامات . لم يقرأ أحد ما كتبناه. أنقلبت الأهرام على رؤوسها. أطلب منهم أيها الفرعون أن يسمحوا لنا بالكتابة والنشر فربما تعلموا منا شيئاً ينقذ الموقف . أطلب منهم أن يمحوا أمية هذا الشعب المسكين الذى لم يعد قادراً على شراء البلح أو المانجو المصرى بعد الغزو الأنفتاحى للموز الأسرائيلى والتفاح الأمريكى والمياه الغازية الماسخة، لأنه حين يتعلم الشعب القراءة والكتابة فسوف يتعلم مقاطعة لصوص الانفتاح وبضاعتهم الفاسدة.

نحن الكتاب الشبان المنتمين بدمائنا ووجداننا إلى تربتنا المصرية . حروفنا تعبر عن مصريتنا وبدونها يتبعثر الشباب بين التعصب والهوس والالحاد والتهافت على المال بعيداً عن أرض الوطن بارخص الاثمان .

أيها الفرعون .. لقد ساهمت باستشهادى فى أثراء الدول النفطية " الشقيقة " فراحت تكدس أموالها فى بنوك أوربا وأمريكا وتكيل لنا من التهم الزائفة ما تتقزز منه النفس مرارة واشمئزازاً . تسخر شبابنا فى خدمتهم وتعليمهم وتربيتهم، بينما يصفنا شعراؤهم بشعب الفول والطعمية ويسبون زعماءنا بأبشع السباب ، ثم نعود ونفتح لهم صدورنا وقلوبنا وندفع لهم من دماء أبنائنا " .

لم يفكر أخناتون فى سؤال الشباب عن سبب بكمه،لكنه سأله بحنان :

ـ كيف أستشهدت أييها الحفيد الطيب ؟

عاد الشاب إلى الورقة والقلم ..

" قتلنى عجوز أسرائيلي فى عمر أبى . كان يمكننى المبادرة بالقضاء على حياته، لكنى لم أعرف حتى هذه اللحظة لماذا ترددت لماذا تلكأت لماذا تراجعت ؟ لعله أجلى قد حان فى تلك اللحظة . كنت أتمنى لو عشت لسنوات أخرى أكتب فيها لاخوانى الشاب راجياً ألا يهاجموا حاكماً رحل ما لم يستطيعوا مهاجمته وهو على مقعد الفرعون . أنقلبت الأهرامات يا فرعون مصر، وليس عندى كلام أقوله بعد ذلك " .

رمقه أخناتون باشفاق وقال لنفسه بحسرة مكثفة بعد أن وضع الورق فى جيبه :

" لقد كانت رسالتى فى الحياة أن يعم السلام الأرض " .. ثم قرر أن يذهب بنفسه إلى القصر الكبير فيصب غضبه وأنتقامه على جسد كبير كبراء الثقافة .

*** * * ***

متجهاً إلى القصر الكبير، يغمره شعور بالأسى .. وماذا يجدى الرثاء لحال الكاتب الشاب الذى أمضى حياته ضحية وهم كبير ؟ .. أما كان ينبغ أن يؤكد له أن دور الأدب المقروء قد أنتهى، وربما إلى غير رجعة ؟ . الويل لك يا كبير الكبراء .

ـ 40ـ

التقى منقرع بطفل صغير يبكى بكاء متصلا . نظر إلى دموعه الشفافة فتذكر ما قيل له عن قول المسيح اذ على البشر كى يدخلوا ملكوت السماء أن يصيروا كالاطفال .

سأله بحنان :

ـ لماذا تبكى يا صغيرى ؟

أجاب الطفل ببراءة فائقة وبلاغة مذهلة .

ـ أبكى سوء حظى .

ـ لماذا ؟

ــ لانى ولدت فى مصر .

ـ وأين كنت تتمنى أن تولد ؟

ـ فى أى بلد من بلاد العالم المتقدم .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

رأيت فى نومتى حلماً جميلا أستطيع أن أرويه لك بكامله .

ـ فى أى البلاد رأيت هذا الحلم ؟

ـ لست أعرف، لكنه بالتأكد يبعد عن مصر كثيراً، فالثلوج كانت تغطى أشجاره .

ـ رائع .. أرو لى هذا الحلم الجميل

أتخذ الطفل مجلسا مريحا . تنهد كما يفعل الكبار .

راح يروى حلمه بسعادة تشوبها مرارة الشعور بأنها مستحيلة . قال " رايت نفسى فى شارع جميل . أركب دراجة صغيرة حددوا لها مسارا خاصا بعيدا عن العربات (رفض والدى أن يشترى لى دراجة فى مصر قائلا أنهم سيدوسوننى بعرباتهم الهوجاء) .. أنطلق فى طريقى أصفر وأغنى وأتوقف عند أشارات المرور . أرى العربات تتوقف حتى يعبر اصدقائى مشيعين بابتسامات الكبار وتلويحهم بأيديهم من نوافذ العربات أتوقف أمام محلات عديدة، أشترى منها لعب الأطفال الملونة .. (اشترى لى أبى دبابة أتوماتيكية بعد نجاحى فى الامتحان . حطمتها فى نفس اليوم فضربتنى أمى وحبستنى فى البيت) .. أذهب إلى النادى ومعى كتاب به صور ملونة أقرأ فيه وأستمع إلى الموسيقا وأتفرج على الحدائق والطيور وأجرى مع الأطفال ونضحك حتى تدمع عيوننا .. (يمنعنى أبى من مخالطة الصبية قائلا أنهم أشرار، فأبقى بالمنزل أتشاجر مع أشقائى وشقيقاتى) .. الطعام وفير ومتنوع والفاكهة اللذيذة الطعم تملأ المتاجر ليشتريها الجميع . كان أبى فى الحلم غير أبى فى الحياة، رقيقاً وديعا لديه متسع من الوقت للمتعة والتسلية والاستفسار عن شئونى (يعود أبي الحقيقى من وظيفته ليعمل أجيرا عند اصحاب عربات الأجرة . فى المساء يسب الحياة ويتعجل الموت . أحيانا كثيرة لا أراه لعدة أيام متتالية . أما أمى فتعود من عملها مرهقة . تضربنى وتضرب أخوتى حتى ننام مبكرين) .. مدرستى جميلة واسعة تقيم لنا الحفلات . فصلى منسق بديع . المقاعد مستوية ناعمة . الاستاذ يشرح لنا الدرس على السبورة أحيانا وباستخدام الاقلام الملونة أحيانا أخرى كما يصحبنا إلى موضوعات الدرس على الطبيعة . (ضربنى المدرس على رأسى بعصاه الغليظة لان أبى رفض أن أتلقى درسا خصوصيا بمنزله . مقعدى محطم ترتع فيه الحشرات وعددنا بالفصل خمسون تلميذا) وبعد ذلك ..

قاطعه منقرع قائلا بابتسامة الأب المجرب :

ـ كفاك حلما يا صغيرى

ـ كيف لا أحلم يا مولاى والحلم يحررنى من سجن الحرمان ؟

ـ أنى أتعجب لقدرتك على صياغة هذه الكلمات

ـ لا مبرر لتعجبك ما دمت حفيدك

ـ بارك الرب فيك يا عزيزى ... هل سمعت عن أنقلاب الأهرامات ؟

ـ وعرفت السبب أيضا

ـ كم أنا فخور بنبوغك .. ما السبب يا صغيرى ؟

ـ لأننا معشر الأطفال لا نلقى الحب والرعاية والاهتمام فى حين أننا الامل الوحيد فى المستقبل

ـ ألا ترى هناك أملاً فى أجيال الشباب المعاصر ؟

ـ ولا فى جيل الآباء المعاصرين

ـ لماذا ؟

ـ لا يمكننى أن أفسر ما تعجز عنه حيلتى .. أنه مجرد أحساس طفل .

عاد منقرع إلى مقره وقد تأثر إلى حد كبير بوجهة نظر الطفل الباكى . ظهر أمامه رعمسيس الثانى الذى أبدى تأييدا ملحوظا لوجهة نظر الطفل، ثم حدثه عن أستعداده للقيام بجوله فى عالم الأموات بين العمال من مختلف الحرف .

أنسحب منقرع بذاكرته الغائصة فى الدهر إلى رحم أمه حيث لا تبحث السعادة عن تفسير .. ثم أقترب من الزمان بمسافة قدرها بضعة آلاف من السنوات حيث يرقد فى تابوته بالهرم الأصغر، وهنا تتحد السعادة بالشقاء فتتلاشى الأزمنة تهيبا من جلال الخلود . أما الميلاد والموت والبعث فتلك أمور مقدسة لا يدرك كنهها سوى طفل صغير .

ـ 41 ـ

أتجه رعمسيس إلى المقابر تحررا من نزعاته العسكرية وسلوكياته الجافة الصارمة . أستدعى سباكا ونجارا وبناءا ونقاشا وراح يتأمل وجوههم . وجدها متشابهة . سمراء ذات تجاعيد متداخلة. الشعر أكرت بعضه مصبوغ باللون البنى الغليظ . معظمهم يرتدون أغطية رأس قطنية لتضغط على شعرهم الطويل .. قمصانهم بلا جيوب . يضعون علب سجائرهم ـ وكلها مستوردة ـ فى جواربهم وأمشاط الكبريت فى بطون أحذيتهم . أحيانا يمسكون بالسجائر والكبريت فى أيديهم على الدوام . مخارج حروفهم غليظة ومنافية للذوق السليم. يرددون بمحبة شديدة أغانى محمد ملوخية . جيوبهم ممتلئة بأوراق النقد . مهاراتهم الفنية ضئيلة للغاية بالقياس إلى زملائهم الذين هاجروإلى البلاد العربية . يحتقرون الموظفين ومنهم من يشفق عليهم من معاناة الحياة اليوميةالتى تسوقهم أليها رواتبهم الشرية الهزيلة .

فوجئ رعمسيس بأحدهم يحضر جوزة ويعمرها بالطباق مضيفا إليها قطعا من الحشيش . أخذوا يتبادولون سحب الأنفاس منها بطريقة منفرة، يتبادلون معها السباب متبارين فى فنون البذاءة غير مبالين بحضور الفرعون . قال أحدهم ان المزاج الرائق هو أساس السعادة فى الحياة . قال آخر إنه لا يستطيع أن يحتفظ بفائض من ماله ليوم واحد، وإنما يفضل إنفاقه فى مجالس الأنس ليقينه من إتيان الموت فى لحظة مجهولة . قال له أحدهم :

ـ نحن لا نقرأ ولا نكتب لكننا نكسب فى اليوم ما يكسبه خريج الجامعة فى شهر

ذهل رعمسيس لسماعه هذا القول فأراد التأكد من صحته . أتصل تلفونيا بكبير كبراء التعليم الذى قال له :

ـ هذاصحيح يا جلاله الفرعون

ـ وهل هذا يعقل أيها الكبير ؟ .. السباكون فوق والمتعلمون تحت ؟؟؟

ـ هذا هو الامر الواقع الحالى، والذى لا حيلة لنا أمام أستفحاله

ـ فكيف يمكننا تغييره ؟

ـ لو نجحنا فى تغير وضع االأهرامات

ـ وكيف يمكننا ذلك ؟

ـ لو قلبنا الأمور رأسا على عقب

ـ وكيف نقلبها ؟

ـ بأن نعدل لأهرامات

أغلق رعمسي سماعة التلفون فى وجه كبير كبراء التعليم بغضب شديد وقرر ان يستدعيه فيما بعد ليستضيفه بالقصر مع كبير كبراء الثقافة .

عاد إلى حديثه مع الحرفيين فتوجه اليهم بسؤاله التقليدى . كانت أجاباتهم على النحو التالى:

السباك ـ لست أفهم الا فى أستعدال المراحيض

النجار ـ عندما تنتهى السوق لسوداء لتجارة الخشب ستعود الأهرامات إلى قواعدها

البناء ـ لن تعتدل الأهرامات إلا عندما يجد سكان المقابر منازل تؤويهم .

النقاش ـ لاأستطيع اجابتك قبل أن أفيق من " سطلتى " .

عاودته نزعته العسكرية القاسية بعد سماع آرائهم فاحتد وأتهمهم بالجهل والغباء ثم تركهم وأنصرف متجها إلى كبير كبراء التعليم المعاصر . التقى به منقرع فى الطريق فذكره بأن طبيعة مهمتهم الحاليه تنحصر فى أستدعاء الموتى وليس فى مقابلة الأحياء . أضطر

رعمسيس إلى استدعاء كبير كبراء التعليم الذى رحل عن العالم منذ حوالى عشرين عاما . أجرى معه أتصالا هوائيا بكبير كبراء التعليم المعاصر وطلب منه أن يستمع معه إلى حديث زميله الراحل على نفس الخط التلفونى . فى نهاية الحديث سأله رعمسيس السؤال التقليدى فقال الكبير الراحل :

ـ لابد أن تخفضوا عدد اطفالكم إلى الثلث حتى يمكن أن توزعوا عليهم الحلوى وهم جلوس فى فصول تليق بالأدميين الصغار .

ـ 42 ـ

أستدعى خفرع ـ خارجا عن قاعدة الثلاثين عاما ـ الأقتصادى الكبير " طلعت حرب " وبعث ببعض من جنود رعمسيس لاستحضار كبير كبراء الأقتصاد المعاصر . أمرهم أن يضربوه فى الطريق ولكن برفق بحيث لا يحدثون به عاهة . فسر لهم أمره بأن هذا الرجل كذاب كبير ضلل شعبه أرضاء للحاكم ونفاقا له بأن قدم بيانات رقمية زائفة تؤكد أزدهار الأقتصاد فى عهد الحفيد الثانى .

جلس خفرع بين طلعت حرب والكبير الكذاب وتركهما يتحاوران. تبين له بعد وقت قليل أن الكبير لا يعترف بخبرة طلعت حرب بل يسفه من آرائه ، فذهب يجرى أتصالا بالقصر ليبلغ الفرعون النوبتجى بالاستعداد لاستقبال كبير كبراء الاقتصاد بناء على طلبه وكبير كبراء التعليم بناء على طلب رعمسيس . ولما عاد إلى مجلسه وجدهما مشتبكين فى جدال عنيف أنتهى بأن طرح طلعت حرب الرجل الكبير أرضا وأشبعه ضربا وركلا ثم طلب من خفرع أعادته فورا إلى قبره . أستمهله خفرع قليلا ليسأله السؤال التلقيدى فأجابه :

- سيدى الفرعون .. خمسون مليونا من البشر ، وشريط زراعى ضئيل ، وديون متراكمة ، وعمل قليل ، وكلام كثير ، و .. كان الله فى عون حفيدكم الثالث ومن سيأتون من بعده .
- لكن ما رأيك ؟

كرر جملته الأخيرة بآلية :

- كان الله فى عون حفيدكم الثالث . ومن سيأتون من بعده .

ـ 43 ـ

أستحضر أمنمحات سيدة أنتحرت فى الستينات . قالت أن زوجها قتل فى حرب اليمن وترك لها ستة أبناء ذاقت الويل لإطعامهم . عملت كخادمة فى البيوت والمحلات التجارية وتعرضت لشتى صنوف الاهانة . حتى جسدها كادت أن تضحى به يوما لثرى عربى وهى غائبة عن وعيها من شدة الجوع والانهاك البدنى . فى ذلك اليوم لم تجد بديلا عن الانتحار كى تتحرر من عذاباتها . قال لها أمنمحات بإجلال شديد :

ـ أنى أقدس فضيلتك

ـ لكنى مت كافرة

ـ لقد باع غيرك من النساء أجسادهن للفارسى واليونانى والرومانى لكنك رفضت بيع جسدك

ـ انى أشعر ببشاعة جريمتى فى حق أبنائى التعساء

ـ ليس الذنب ذنبك يا سيدتى الجميلة،إنما أنت ضحية لأشياء عديدة لا تدركينها

ـ لولا تلك الحرب اللعينة ـ عديمة الجدوى ـ لما مات زوجى وتعذبت وانتحرت

ـ سوف يأتى يوم يحكمكم فيه رجل سلام عاقل

ـ ومتى يأتى هذا اليوم ؟

ـ بعد أن تستقر الأهرامات على قواعدها من جديد

ـ أذن فلن يأتى ها الرجل أبدا !

ـ كيف لك أن تجزمى بذلك ؟

ـ لان الاهرام لن تستقر أبدا على قواعدها ما لم يعد زوجى وأبنائى

ـ أنك تطالبين بالمستحيل

- انى أطالب بأن تحكمنا امرأة، فربما نجحت فى تحقيق هذا المستحيل

ـ سبق أن حكمتكم نساء فى العلن، وأخريات من وراء ستار، لكنهن فعلن أسوأ مما فعل الرجال

ـ لا شك أنك ستغلبنى بحججك لأنى امرأة جاهلة، فأذا أردت أن تقنعنى بشئ فابعث السيدة الراقدة بجوارى لأنها جديرة بمحاورتك

ـ لا مانع عندى من ذلك، لكن لابد من معرفة بعض المعلومات عنها قبل استدعائها

ـ أسمها " مطيعة " كانت تعمل موديلا للفنانين . نهمة لقراءة الأدب. تجيد الرسم والنحت . تعشق الموسيقا والفنون .

قبل أن يجرى امنمحات أتصالاته بالعالم السفلى ليستحضر مطيعة، اتصل بزميله الفرعون النوبتجى بالقصر الكبير طالبا منه الاستعداد لاستقبال كبير كبراء الشعب، والذى كان يعرف فى زمن سابق بكبير كبراء الأمة.

قالت مطيعة أن المرأة المصرية مصابة بداء " الماسوشيزم " اصابة حادة قاتلة، ليس من السهل التخلص من أثارها، ولهذا سيظل الرجل المصرى يقودها بغباء إلى الحروب التى لا معنى لها والتى لن تؤدى إلا إلى فقد أبنائها حيث لاتملك وقتها سوى العويل والصراخ . قالت أن بعض النساء المحجبات اللاتى يخفين وجوههن بأكملها إما يخفين دمامة هذه الوجوه وقبحها وإما يفعلن ذلك تنفيذا لأوامر الرجل . قالت انها لا تقصد التعميم فى أية حالة من الأحوال لأن هناك ندرة من النساء العاقلات اللاتى تتحجبن عن اقتناع شخصى .

قال أمنمحات وقد أستبدت به الدهشة :

- انى مستمع لك حتى النهاية، لكنى لا أستطيع الربط بين موضوعاتك المتفرقة التى لم أسألك الحديث عنها .

ـ معك حق، سيظل حديثى مفتقدا المنهج طالما أحتفظت بكامل وعيى .

أزداد تعجب أمنمحات من غموض المرأة الفاتنة الجالسة أمامه بثقة متناهية، واضعة ساقا فوق ساق،مشعلة سيجارة من سيجارة، لكنه لاحظ أنها تخفى بداخلها توترا نفسيا بالغ الحدة .. قال لها :

ـ ماذا تريدين أن أقدمه لك كى تتحدثى بمنطق مفهوم

ـ زجاجة من الويسكى

ضرب أمنمحات قدمه اليسرى بقوة على الأرض فأنفتحت تحتها طاقة صغيرة برزت منها زجاجة مثلجة من الويسكى فتحت من تلقاء نفسها بمجرد أن تناولها بيده . قدمها لمطيعة . راحت تعب منها فى جوفها بشراهة كما لو كانت تشرب الماء فى وقت قيظ شديد . قال أمنمحات كالمذهول :

ـ أنى مستمع اليك، راجيا ألا يبتعد محور حديثك كثيرا عن صميم موضوع انقلاب الأهرامات .

بدأت أسايرها تنفرج وأخذت بوادر التوتر تزول عنها تدريجيا، ثم قالت وهى تضحك بعذوبة رائعة لم يتحرك لها وجدان أمنمحات:

ـ اننى فى غاية الدهشة لأمركم أيها الفراعنة المصريون . أى أهرامات تلك التى تريدون استعدالها والعالم كله منقلب على رأسه حينا وعلى بعضه حينا آخر ؟

تناولت جرعة من الزجاجة بهدوء حقيقى يخلو من الافتعال وواصلت حديثها بألفاظ أكثر أستقرارا :

ـ ليكن فى معلومك أيها الفرعون أننى لم أعد أعبأ بشئ فى هذه الحياة على الأطلاق .

ان المسافة بين مولدى ومماتى مسافة وهمية تخلو من المعنى سواء تعريت من ملابسى أو احتل الأنجليز جزر الفوكلاند أو تكفلت أسرائيل وأمريكا بالقضاء على شعب فلسطين ، أو انقلبت الأهرامات أو اعتدلت ، أو عشت أو مت ، أو رسمت لوحات سريالية لا يفهمها قومى ولا يشعرون لرؤيتها بأى شئء ، أو باعت جارتى الميتة جسدها لرجل البترول

، أو بعث أنا جسد أمرأة غيرى لأجنبى ، أو باع رجل أجسادنا لمصرى ، أو طارت رؤوس أبنائنا فى الحرب ، أو ألقوا بهم فى السجون المعتقلات ، أو عم السلام والحب والعالم المنحط ، أو بعث رسول جديد يضيف معنى للحياة البشرية أو ...

أشار إليها أمنمحات بكفه علامة الأمر بالسكوت . قال لها بسخرية لكن فى حنان :

ـ ما كنت أظن أن الخمر تمدك بكل هذا المنطق وتمنهج حديثك بهذه الكيفية الرائعة .

لم تفطن مطيعة إلى سخرية أمنمحات ، بل أعتقدت أنه معجب بحديثها فواصلت الكلام

ـ إن عذابى الأكبر يكمن برغبتى الشديدة فى الإيمان وعجزى فى الوقت ذاته عن تحقيقها ، وهأنا أفعل كل ما يحلو لى وكل ما يفترض أن يحقق لى أسباب السعادة ، لكن نفسى مظلمة وروحى ثقيلة متهابطة لا أستطيع حملها ، وما دام الأمر كذلك فستظل أهراماتكم مقلوبة ، وأرجو أن تعتبر حديثى أليك قد انتهى لأننى متعبة متعبة متعبة .

فوجئ أمنمحات بمطيعة تتأهب للوقوف فأخبرها أنها لا تستطيع الانصراف دون موافقته . قالت له بتوسل من القلب :

ـ أرجوك أن تعيدنى إلى مقبرتى فقد سئمت الحياة مثلما سئمت الموت

أجابها أمنمحات إلى طلبها ، لكنه استحضر أرملة قتيل اليمن مرة أخرى وسألها :

ـ هل أستمعت إلى ما قالته مطيعة ؟

ـ أنى لم أفهم شيئا على الأطلاق

ـ وماذا تريدين الآن قبل أن نفترق ؟

ـ لست أريد شيئا

ـ أقصد هل ترغبين فى العودة إلى قبرك أم تودين معايشة هذا العصر ؟

ـ لم أعد أدرى

ـ وأولادك وزوجك ؟

ـ كنت أود رؤيتهم قبل الاستماع إلى حديث مطيعة الذى لم أفهمه ، أما الآن فأعتقد أنه من الأفضل إعادتى إلى نومتى الأخيرة

ـ والأهرامات المقلوبة ؟

ـ أرجوك أعادتى إلى مقبرتى

بعد هذين اللقائين أصبح أمنمحات واثقا تمام الثقة من سلامة قراره باستضافة كبير كبراء الشعب . استحضره وأرسل به مع مندوب إلى القصر الكبير .

– 45–

سال أمنمحات نفسه والحيرة تكاد تدير رأسه :

ـ هل كان ابتكارنا لنظام الدولة بمثابة كارثة على العالم ؟

****

– 46 –

كان حور محب هو نوبتجى القصر حين أستقبل كبير كبراء الشعب بناء على طلب أمنمحات . جرت مراسم الاستقبال فى حديقة القصر بعيدا عن أبوابه العالية . قال له حور محب بلهجة تهكمية :

ـ أن شعبك الذى يفترض أنك تمثله أصبح يفضل الموت على الحياة فى عصرك

ـ ما معنى هذا يا جلالة الفرعون ؟

ـ معناه أنك لا تمثله حقيقة لأنك زائف وصلت إلى مقعدك بالغش والتزوير

ـ هناك حكومة ولها رئيس، يمكن الرجوع اليهما للتأكد من شرعية جلوسى على مقعد الشعب

ـ لا شأن لنا بالحكومة أو الحاكم فهذا ليس من اختصاصنا، كما أننا نفترض أنك المسئول الأول عن اختيار الحكومة والحاكم

أبتسم الكبير أبتسامة صفراء كشفت عن تمتعه بقدر وفير من النفاق وقال :

ـ سيدى .. تلك مسائل معقدة يحسن عدم الخوض فيها بلا مبرر.

صرخ حور محب فى وجهه بكراهية شديدة :

ـ أيها الغبى، ألا تجد مبررا للخوض فى تلك المسائل وأنت المسئول الأول عن انقلاب الأهرام؟؟

ـ أنه لإجحاف شديد يا سيدى أن تحملنى وحدى هذه المسئولية

ـ بل أن الاجحاف الأكبر لشعبك أن تتجاهله وتوافق حكوماتك المتعاقبة على كل قرار تتخذه فى السلم أو الحرب دون مناقشة لمجرد البقاء على مقعدك

ـ لا تنس يا سيدى أن نصف زملائى فقط من الصفوة والبقية من العمال والفلاحين

ـ أنت تعلم أنك كاذب، لأن التمثيل زائف من أساسه

ـ وأين الصفوة أذن ؟

ـ أنهم خارج اللعبه تماما، وهكذا انقلبت الأهرام لجهلكم من ناحية ولابتعادهم عنكم من ناحية أخرى .

فى تلك اللحظة وصل رسول فرعونى . انتحى بحور محب جانبا . أبلغه رسالة فرعونية تنص على عدم جواز أستضافة كبير كبراء الأمة لأنه يعتبر سياسيا .

وكان الفراعنة قد أتفقوا من قبل على عدم أستضافة رجال السياسة بالقصر والاكتفاء باستضافة من يصنعونهم ويصنعون لهم سياساتهم ولهذا فقد أقتصرت الأستضافة على رجال الفكر والفن والتعليم والأقتصاد والإعلام .

قال له حور محب بغيظ شديد :

ـ من حسن حظك أنك أفلت من قبضتى . أخرج فورا من هذه الحديقة قبل أن أقتلك، ولكن خذها نصيحة منى : أهتم بمصالح شعبك فقد ساءت حالته وتفشت بينه ظواهر بشعة لم يعرفها من قبل، أبرزها أضرابه المستتر عن العمل، وثق أنك لن تفلت من العقاب لو لم ننجح فى أستعدال الأهرامات المقلوبة وإعادتها إلى قواعدها الأصلية .

- 47 -

أطمأن نزلاء القصر إلى أختفاء حتشبسوت بصفة قاطعة فبدأوا يتخلون عن أحتراسهم وتحفظهم . غمرهم شعور متوحد بالراحة بعد أن أنزاح عن كاهلهم كابوس سجانتهم الجميلة القاسية التى كانوا يحسبون لوجودها ألف حساب . أنطلقت عوالمهم الداخلية بغير حدود فى فضاء القصر الرهيب . تجمعوا بعد عشاء فى غفلة من نوبتجى القصر وراحوا يصبون لعناتهم على الفراعنة الذين أحضروهم إلى هذا المكان . أجتمعوا على أساس من الإحساس المشترك بالخوف الشديد من أحتمال أن ينجح الفراعنة فى أستعدال الأهرامات فيتهدد مصيرهم بالفناء . لا حول لهم ولا قوة أمام أحتجازهم بالقصر وعجزهم عن مقاومة الأستعدال . لكن مشاعر خفية متباينة كانت تجوس فى نفوسهم . تؤكد لكل منهم على حدة تميزه على غيره من النزلاء، وتهيئ له أعتقادا بأولوية أستحقاقه للنجاة والعودة إلى ذويه . انفلتت هذه المشاعر فى غمرة احساسهم العام بالورطة التى لا مخرج منها . حينئذ قال كبير كبراء الثقافة :

ـ سوف أعرف كيف أؤدب هؤلاء الملاعين بعد خروجى من قصرهم . كيف يستضيفوننى وأنا أبرز عضو بحزب الباب العالى ؟ .. أنا الذى تبرعت لكبير الحزب بمليونين من الجنيهات ثمناً لأنضمامى لحزبه وتعيينى كبيراً لكبراء الثقافة . أنا الذى أهملت مشروعاتى التجارية الكبرى حتى أتفرغ لخدمة هذا الشعب الفقير المتخلف ؟ ..

وحيث لا رقيب ولا حسيب للمشاعر المنفلتة قال محمد ملوخية :

ـ يالنكران الجميل .. أنا الذى أدخلت السعادة على قلوب العمال والفلاحين . أنا الذى يتغنى النجارون والبناءون والنقاشون بأغنياتى ليل نهار . أنا ملك الغناء الشعبى . يجلجل صوتى فى البارات والتاكسيات وشاليهات المعمورة والهرم . أحث على البساطة بقولى " تيك ات ايزى " وأدعو لتنوع الحياة بقولى " حبة فوق وحبة تحت " . سوف أسخر فى أغنياتى من غبائهم بعد الخروج . سوف أجعل الشعب يضحك منهم حتى تدمع عيونه . يريدون استعدال الأهرامات . ؟ . يظنون أنها مقلوبة ؟ .. ها ها هع .

ويقول قبطان مراد عثمان بثقة لاحد لها :

ـ بأموالى سأشترى كل الفراعنة وأخرج من هنا . أنى أعدكم بتحويل هذا القصر إلى معتقل أضع فيه كل من يحاول أستعدال الاهرامات مرة ثانية، سوف أسقط بنفوذى أى تغيير يفكرون فى إحداثه .

أقترح الصحافى عليهم فكرة الاتصال بوكالة أنباء أجنبية للاستنجاد بقوى الحرية والعدالة فى العالم المتحضر حتى يطلقوا سراحهم . لم يأبه أحد باقتراحه لثقتهم الكاملة فى انعزالهم عن العالم . وتساءل كبير كبراء التعليم بدهاء :

- لماذا لا نحضر روح الحفيد الثانى الذى صنعنا، فنسألة المشورة للأفلات من القصر ؟

أنطلقت ضحكة صاخبة من سمارة . قامت تنشد موالها الشهير " طلعت فوق السطوح أنادى على طيرى "

توالت صيحات الاستحسان فواصلت سمارة غناءها بحماس شديد . تحول المجلس إلى سهرة ليلة صاخبة، ظهر الفرعون النوبتجى فألقى عليهم نظرة محايدة ولم يبد أعتراضاً على مرحهم ثم انصرف فى هدوء . أحضر ملوخية عوده وأخذ يغنى . إلتف النزلاء حول سمارة وهى ترقص وتغنى معه وهم يصفقون لهما . أنبرى كبير كبراء الأقتصاد قائلا :

ـ يا أخوانى ليس هذا وقت الرقص والغناء . ينبغى أن نفكر فى حل لمأساتنا .

قاطعوه جميعاً فى صوت واحد وهم يغنون بإيقاع ثابت على نغمات العود :

" أسكت يا كذاب . أسكت يا كذاب .. أسكت يا كذاب " !!

أخيراً خرج حليم حتحوت من صمته الطويل ... قال كمن يحدث نفسه

ـ ليتنى أعرف ماذا يدور فى ذهن الحفيد الثالث بشأنكم أيها التعساء .

- 48 -

فوجئ حليم حتحوت قبل الجميع بخروج حتشبسوت من غرفتها فى رداء نوم وقور . قالت لهم محذرة :

ـ لا فائدة من كل ما قلتموه . نحن نعرف نواياكم تماماً . الحراسة من حولكم مكثفة وغير مرئية . نحن نسجل عليكم كل ما تنوونه فى سرائركم . هنا سيبقى مصيركم لحين أن نبتّ فى أمركم .

ـ 49 ـ

لا وهم ولا حقيقة عند حليم حتحوت، فالاثنان من صنعه . حينئذ يتساوى عنده أن يكون ظهور حتشبسوت حقيقة مرئية أو خيالاً من صنعه وإبداعه . تجلى له فى تلك اللحظة ما سبق أن خفى عليه من مشاعر غامضة مفعمة بلذة حسية مسحورة كانت تنتابه من حين لآخر منذ أن أختفت حتشبسوت .. ولم يتوصل حليم إلى اجابة قاطعة عن تساؤله المحير :

" هل كانت الملكة قابعة فى روحه أم أنها أحتوته بجلالتها روحاً وجسداً ؟ "

ـ 50 ـ

توجه رعمسي الثانى إلى تمثاله العملاق المنتصب بميدان محطة القاهرة . جلس إلى جواره يتأمل جماهير أحفاده الرائحة والغادية من حوله . زحام رهيب. سيل هائل من العربات الجامحة . آلات التنبية تصرخ بجنون . عادم العربات الخانق والأتربة السوداء والحرارة اللافحة .

الأحفاد يهرولون يميناً ويساراً . يعبرون الطرقات فى رعب . كرنفال من الملابس المدنية والريفية والقبلية . عربات أخرى تجرها الأحصنة والحمير . قرويات يحملن السلال ويجرجرن جلاليبهن الطويلة على الأرض .

نظر رعمسيس بزهو إلى تمثاله . الناس خائفون يا رعمسيس . لا يبتسمون يا رعمسيس . الناس كثيرون . ضاق بهم واديهم الجميل فراحوا يتصارعون على لقمة الخبز فى عصر الانضغاط . سيأتى يوم يا رعمسيس تكتظ فيه أرضك بأحفادك، وتنحشر أجسادهم فى الطريق وتتلاصق بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك خطوة واحدة، وحينئذ يموتمون وافقين . لماذا لا تطلب منهم أن يذهبوا معك إلى الجيزة ليجربوا بأنفسهم أن يعدلوا أهرامهم ؟ . جيشك العظيم عجز عن ذلك . فقد الماضى فعله وآن أون الفعل الحاضر . تلك هى الحقيقة . لن يستعدل الأهرامات سوى من قلبوها .

أفاق رعمسيس من شروده ليجد حسناء فارعة تقف أمامه . حتشبسوت ؟ ! .. أما زلت على قيد الحياة ؟ .. ألم يختطفك أحفادنا الأشرار ؟ .. يالسعادتى الأبدية بلقائك يارفيقةالماضى الذى لن يعود . انى ما زلت أذكر الليلة التى أنتهت فيها حياتى مصاباً بتصلب الشرايين . فى تلك الليلة رأيت المجد مجسداً وهو يفارقنى فكان عزائى أنه متجه إلى من يأتى بعدى من فراعنة يحكمون مصر . لم يخطر ببالى أبداً أنه سيغيب عن وادى النيل الذى تشبث أجدادى بأرضه منذ عصر الجليد . حتشبسوت يا رفيقة الماضى العظيم .. يدك فى يدى نبحث معاً عن الغائب، نعيده إلى أرضنا من جديد .

يتأثر واضح قالت حتشبسوت :

ـ أنى أشاطرك الأحلام، لكنى أهتديت إلى الوسيلة .

قفز رعمسيس وافقاً وقد استبدت به الفرحة :

ـ أنها حقاً لمعجزة !

ـ وفيها يكمن سر أختفائى .

بشوق شديد ورغبة جامحة فى المعرفة سألها رعمسيس :

ـ بحق الاله أين كنت وما هى الوسيلة ؟

ـ فليحضرنا أخناتون أولاً قبل ان أتكلم .

ـ 51 ـ

أمام أخناتون أقرت حتشبسوت أنها كانت مختفية بأرادتها فى غرفة حليم حتحوت بالقصر دون علمه . كانت تراقب واقعه وتعايش أحلامه . أحياناً تظهر وأحياناً تختفى . عاشت معه لحظات الإبداع المقدسة . رأته يضحك يبكى يصرخ يصمت . تحاورت معه . أحبته حباً جنونياً . ودت لو أمضت معه بقية حياتها المقررة قبل العودة إلى العالم السفلى . أيقنت أن استعدال الأهرامات لن يكون إلا على يديه . صاحت فجأة :

ـ فلنخرج حليم حتحوت من القصر ..

ما أن مضت لحظات الدهشة والاستفسار حتى ظهر حور محب قائلاً :

ـ ولنستحضر يوسف فخر الدين موسى وعلى عزيز سهدوم .

أضاف أخناتون :

ـ ولنحضر رجال الأديان ومعهم أم كلثوم .

ظهر أمنمحات وقال بلهجة حكيم كل الأزمنة :

ـ لن يستعدل الأهرامات سوى من قلبها .

صاح رعمسيس بفرحة طاغية :

ـ ها هو حلمى يفسر .

قالت حتشبسوت بابتسامتها الراسخة :

ـ حلمك هو معجزتى .

ظهر خوفو يليه خفرع ثم منقرع .. سألوا بصوت واحد :

ـ ماذا سنفعل بضيوف القصر ؟

ثار نقاش طويل حول هذه النقطة . طالب رعمسيس بنسف القصر بمن فيه . طالب امنمحات وأخناتون بالإبقاء عليهم بالقصر حتى الموث . قال أخناتون لحتشبسوت :

ـ لكن الجماعة التى ستستعدل الأهرامات ليست هى التى قلبتها .

ـ كلنا نعرف هذا، لكن غيابهم تسبب فى انقلابها، ولذا فهم المسؤلون الحقيقون، وما زلت على أصرارى بأنهم الصفوة التى ستجد الوسيلة .

فى النهاية وافقوا على فكرة أمنمحات وأخناتون بعزل ضيوف القصر، ثم أستدعوا حليم ويوسف وسهدوم وأم كلثوم ورجال الأديان.

التف جمع من الصبية حول المجتمعين أمام التمثال وأخذوا يتفرجون عليهم بدهشة بالغة، يسخرون منهم ويتبادلون حولهم النكات والقفشات ويرمونهم بالحجارة . نظر اليهم رعمسيس بإشفاق شديد وشعر تجاهم بالحسرة والمرارة .

فجأة أختفى الفراعنة ومعهم ضيوفهم . صرخ الصبية من شدة الفزع وسارعوا بالفرار من الميدان . بقى التمثال وحيداً . لم يلحظ أحد من الكبار تساقط دموع غزيرة من عينيه .

– 52 –

دعى فريق الأستعدال المقترح إلى حضور الأجتماع الأخير للفراعنة فى عالمهم السفلى . أفتتح الحفل بالاستماع الى قصيدة من غناء أم كلثوم . أستبد بهم الطرب وهى تشدو بمحبة فائقة :

" وبناة الأهرام فى سالف الدهر .. كفونى الكلام عند التحدى .. أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى " ..

لم يعرف أحد الحاضرين من الأحفاد كيف وصل نبأ الأجتماع إلى الجرائد المعاصرة وأجهزة الأعلام حين اندفع المصورون بآلاتهم وكاميراتهم التليفزيونية والسينمائية لتسجيل الحدث العظيم، لكنه كان واضحاً أن الفراعنة قد توقعوا وصول الجماهير بين لحظة وأخرى .

أنتقل الحفل إلى العالم الأرضى بجوار الأهرامات . بعد انتهاء أم كلثوم من غنائها وقف أخناتون يقول .. " سيداتى سادتى .. يا أحفادنا المساكين "

بدأت جموع غفيرة من المواطنين فى التدفق على مكان الاجتماع إثر أنتشار النبأ فى مصر . واصل أخناتون حديثه . " لقد أتخذنا من أجلكم قرارنا النهائى بعد جولتنا الأخيرة فى عالم أحفادنا السفلى المنصرم .. أنها فرصة العمر فاهتلبوها بلا تردد .. أدفعوا الصفوة إلى

الأمام . أملؤوا قلوبهم بمحبتكم وشدوا أزرهم بعقولكم وسواعدكم حتى تعود الأهرام كما كانت .. رؤوسها شامخة فى السماء وقواعدها راسخة على أعرق أرض عرفها التاريخ "

أخذت الجموع المتدفقة تهدر بصيحات الحماس والتأييد للصفوة المختارة . ظهر فى السماء طائر غريب الشكل كبير الحجم تبعه طائر أخر من نفس الفصيلة ثم أختفيا . بانت نذر الخطر على وجه يوسف فخر الدين موسى . أراد أن يحذرهم من شئ ما، لكن نوبة الحماس كانت قد أكتسحت كل شئ فاجتر صمته وابتلع خوفه مما يخبؤه الغيب .

اتجه حليم حتحوت مرتدياً زى الفراعنة ومن خلفه بقية جماعته إلى رأس الهرم الأكبر . انحنوا جميعا لقمته المدفونة فى التراب . دفعوها بأيدهم فاهتز الهرم لأول مرة . تعالت صيحات الأعجاب والتكبير الصارخة . وصل الحماس إلى الذروة . بدأت الجموع تتدافع تجاه الهرم . تلاحموا مع الفريق فى تناسق هندسى بديع . أصبح الهرم طيعاً بين أيديهم وباتت المحاولة على وشك النجاح .

كان الفراعنة يرقصون ويبكون فرحاً فالمعجزة وشيكة الوقوع . فوجئ رعمسيس بالشاب الأمريكى يرقب المشهد الأسطورى بدهشة تعبدية أقرب إلى الذهول . لم يشعر رعمسيس بالرغبة فى مخاطبته فتركه لحاله وعاش بكيانه لحظة العمر المرتقبة .

- 53-

أختلت حتشبسوت بنفسها بعيداً عن بقية الفراعنة . جلست فى مكان قصى ترقب حليم حتحوت بحب وإعجاب وهو يحقق المعجزة مع شعبه بعد أن طال انتظارها.

* * *

" أحبك . أحب نسيمك حين تغرب شمسك وحين تشرق . أحب مياهك تروى جسدى . أحب أنغامك . شجيراتك . ورودك . رائحتك . أعشق ليل صفائك وأتعبد فى أمسيات القمر والأحلام الوردية بين أحضانك . أهيم فى عالمك الأسطورى العبق برائحة السحر، المفعم بلذة الكشف عن المجهول .. يتضاءل الزمان تحت قدمى أبديتك فأحبك وأحبك و أحبك . "

****

- 54 -

أطلق أبو الهول صرخة صاعقة. رعدت السماء بعنف شديد. ارتجت الأرض وتزلزلت بقوة جبارة . ظهرت فى الأفق طيور جارحة أجسادها فى حجم الأنسان . العيون حمراء . المناقير من الحديد الصلب. الأجنحة من شرائط معدنية رمادية اللون . أخذت الطيور تصدر أصواتاً كريهة عالية . راحت الجماهير تجرى فزعة مضطربه تنفض من حول الأهرامات بأقصى ما تستطيع من سرعة . يصطدمون ببعضهم البعض وهم يهربون . الطيور

تحوم فوق رؤوسهم وقد ازداد ارتفاع أصواتها الكريهة المنذره بالسوء . اختفى الجميع . لم يبق بالساحة غير أخناتون وحليم حتحوت الذى قال بحسرة :

ـ يا فرحة ما تمت ..

ـ 55 ـ

اختفى أخناتون وظهرت حتشبسوت . نظرت إلى حليم حتحوت نظرة هائمة بأطياف الحفيد الأول وأرملة قتيل اليمن والحفيد الثانى ومطيعة، وفانوس أفندى الغلبان والعامل عدو المرأة، والكاتب الشاب شهيد حرب أكتوبر . اتسعت حدقتا عينيها فى وجه حليم فقال يوسف عن النفاق وقال سهدوم عن العقل والقلب، وعج قصر الضيافة بالنزلاء المعزولين، فبكى الطفل الجميل حسرة على ولادته بمصر الحديثة، وأخذ العمال الحرفيون يدخنون الحشيش ويضحكون، حين وقف شاب مثقف يتفرج بحياء شديد على " فاترينة " للأحذية التى توطأ بها الأرض .. أما الأهرامات فما زال عاليها واطيها .

- 56 -

تحسست حتشبسوت بطنها برفق وقالت لحليم إنها حامل . قال حليم وقد استبدت به الحيرة وروعة غموض الموقف .

ـ لقد انفض من حولنا الجمع فلم يبق الا انا وأنت .

لم تسمع حرفاً مما قاله المفكر الكبير .. رددت قولها بلهجة عابد متصوف :

ـ إنى حامل .

بعينين زائغتين بين الجماهير الهاربة وحتشبسوت الحالمة قال حليم والحزن آخذ به :

ـ لكنك ستعودين الى العالم السفلى .

قالت بأطمئنان شديد :

ـ لقد اتفق الفراعنة مع الحفيد الثالث على استبقائى بمصـــــــــر حتى أضع وليدى .

*** * ***